الفريد هتشكوك



الصورة العارية

ترجمة: صادق راشد

الصورة العارية

تأليف الفريد هتشكوك
ترجمة صادق راشد

وصــفة للقتــل

كان أريج الزهور يعبق المكان ، وشذاها يفيض جوا من السحر والاسترخاء ، وكانت الفيلا تسبح فى أمواج دافقة من الروائح العطرية .

وكما كانت الفيلا على غير ما توقع ، كذلك كانت صاحبتها مختلفة تمام الاختلاف على ما قدر وتخيل .. كانت مدام شالون طرازا آخر لم يجر له بالخاطر .

نعم ... لم يكن فى هيئتها أو سماتها ما يوحى بأنها قاتلة .

كانت فى الأربعين من العمر ، وما من شك فى أنها كانت سائرة فى طريق البدانة والترهل ، ولكن كان مستحيلا أيضا أن تفطن الى ذلك ، اذ كانت تبــدو رشيقة دافقة الحيوية . وتأمل عينيها الزرقاوين ، ومضى يحدث نفسه بأن لهما زرقة البحر المتوســط الذى يتراءى له على البعد عبر قاعة الاستقبال التى يجلسان فيها .

ولم يخالجه شك فى أنها حين تشرف على الستين ، سيظل لها نفس الجمال الذى يشــهده الآن ، لا أكثر ولا أقل ، فان الأعوام لن تنال منها أبدا .

وقالت المرأة : المفتش ميرون .. ؟

وكان لها صوت رقيق ينبض بحلاوة نبرات فتاة فى السادسة عشرة من العمر ، وتراقصت فى عينيهـا وهى تتكلم أشباح ابتسامة مرحة .

وصبت له قدحا من الشاى ، وبسطته اليه ، بيد

انها ما لبثت أن ردت يدها ، وتناولت من القدح رشفة صغيرة ، ثم قدمته اليه ، كأنما تريد ان تقول : « ها أنت ترى أنك فى أمان ... ليس بالقدح شيء من السم » .

وقالت ومازالت الابتسامة تتلاعب على شفتيها :

ــ أعتقد انك ما جئت الا لتبحث موضوع أزواجى الذين قضوا واحدا بعد الآخر .. ؟ لقد أثار موتهم المتتابع الريب والشكوك .

وكان فى كلماتها الصريحة ما اربكه ، فارتج عليه الكلام ، وقال فى كلمات مترددة متلعثمة .

ــ سيدتى ... اننى ...

بيد انها قاطعته وعيناها تختلجان ببسمة خفيفة :

ــ لا شك انك زرت ادارة الشرطة واستمعت الى ما يقولون ... ان أهالى فرانش جميعا يعتقدون اننى القاتلة .

واعتدل فى جلسته ، واسترد هدوءه البوليسى ، وقال :

ــ سيدتى ... اننى جئت أسألك اذنا بالموافقة على تشريح جثة مسيو شارل فيسر الذى مات فى سنة ١٩٣٩، وجثة مسيو ايتيان شالون الذى توفى فى مايو سنة ١٩٤٦ واستطرد المفتش ميرون قائلا :

ــ انك رفضت أن تمنحى هذه الموافقة للسير جانت لوشير من شرطة المدينة ، فما السبب فى رفضك ... ؟

ودون تردد أجابت مدام شالون :

ـــ لوشير رجل تجرد عن الأدب ... انه وقح وسليط اللسان ... وهو على نقيض طرازك ليس بالرجل المهذب ... اننى أبيت على الرجل ما طلب ، ولكنى لا يمكن أن أرفض ما يطلبه القانون .

وتناولت رشفة شاى من قدحها ، وقالت :

ـــ انى لا يمكن أن أردك خائبا يا مسيو ميرون .

وتطلعت اليه بعينين فيهما لمسة اعجاب .

وقال : شكرا على مجاملتك .

وتابعت المرأة حديثها فى صوت بالغ الرقة :

ـــ وعلى أية حال لا مناص من أن أمنحك الموافقة المطلوبة ، فانى أعرف أساليب ادارة البوليس فى باريس ... ففى الوقت الذى تجيئون فيه تطلبون الاذن بالتشريح تكونون فعلا قد شبعتم تشريحا سرا وخفاء .

وتأملت السيدة بنظرات مختلسة وجه المفتش ميرون وهو يتضرج احمرارا ، وان كانت قد تظاهرت بأنها لم تفطن الى الأمر .

واستطردت تتابع الحديث وقد ازدادت ابتسامتها اتساعا .

ـــ والآن وقد تم التشريح فعلا وجدتم انه لم يسفر عن نتيجة ايجابية ، فجئتم تزورونني ابتغاء تقييمى .. تريدون أن تدرسوا شخصيتى ، وقدرتى على التحكم فى أعصابى ، ثم تعمدون الى المناورة واستدراجى وأنتم تتحدثون الى ، علكم تقعون على بادرة ترشدكم الى اننى قاتلة ، اليس كذلك .. ؟

لقد سددت فى جرأة وثبات هذه السهام الى صدر المفتش ميرون ، مما جعله ازاء صراحتها يؤثر ان يعمد الى نفس أسلوبها ، وأن يتبنى طريقتها .

اعتدل فى جلسته وقال :

ــ تماما يا سيدتى ... تمــاما ... انك على حق فى كل ما تقولين :

ثم حدجها بنظرة فاحصة ، واسترسل يقول :

ــ اذا مات للمــرأة زوجان فى طور الــكهولة دون أن يبلغا الشيخوخة ، واذا ماتا بسبب اضطرابات معــوية حادة ، واذا مات كل منهمــا عقب الزواج بسنتين ، تاركين للأرملة ثروة جسيمة ... اذا حدث هذا ، فلا شك أنك ترين ان الأمر ...

وامسك عن متابعة كلماته ، بيد أن ما يرمى اليه كان جليا واضحا .

وقالت مدام شالون وقد اعتدلت فى جلســتها ، بحيث بدا صدرها الناهد شديد البروز :

ــ طبعــا ... طبعا ... واحســبك تريد منى اعترافا كاملا يا حضرة المفتش ميرون ، اليس كذلك ؟

كان صوتها ناعمــا ، وكان ينبض بدلال الأنوثة بشكل صارخ جعل ميرون يهيب بأعصابه أن تتماسك، وأن عليه أن يصمد حتى لا ينزلق .

وأجاب المفتش فى صوت ثابت النبرات :

ــ هذا اذا شئت أن تدلى باعتراف يا سيدتى . انها امرأة خطرة ... نعم ... خطرة جدا .

وقالت : اذن سأعمل على ارضائك .

وفى هذه المرة لم تكن مدام شالون تبتسم .

وهبت نسمة من الهواء عبر النافذة المفتــوحة ،

فحملت الى أنفه شذى عطرها المسكر ... أو لعله العطر المنبعث من الحديقة .

وران عليهما الصمت برهة ، ثم عادت مسز شالون تقول :

ـ أعتقد انك تعرف شيئا عن فن الطهى يا مسيو ميرون ، أليس كذلك .. ؟

ورد باسما : أنسيت يا سيدتى انى من أبناء باريس .. ؟ انهم جميعا يعرفون الكثير عن فن الطهى .

ـ ومن الحب أيضا ، أليس كذلك ؟ ..

وعاد ميرون يقول : للمرة الثانية أكرر عليك يا سيدتى اننى من أبناء باريس .

وانتفخ صدرها الناهد اثر تنهدة عميقة ندتها عن صدرها .

ثم قالت : والآن دعنى أعترف ... ها أنذا هورتنس أوجين فيلروا فيسر شالون أقرر بملء حريتى ودون اكراه اننى تعمدت فى اصرار أن أقتل زوجى الأول مسيو فيسر البالغ من العمر ٥٧ سنة ، وبالمثل زوجى الثانى مسيو شالون البالغ عمره ٦٥ سنة .

وسألها المفتش : أكان هذا منك لدافع معين أم ضربا من الجنون .. ؟

واستطردت : لقد تزوجت مسيو فيسر باغراء الأسرة وضغط منها . ولكن لم يمض على زواجنا أسبوعان حتى تبينت أن مسيو فيسر خنزير قذر ... كانت له شهية بلا حدود ... كان رجلا أكولا ، يقبل على الطعام اقبال رجل لم يذق لقمة فى حياته ...

والى جانب هذا كان بالنسبة الى عمال مصانعه رجلا ظالما قاسـيا ، يعذبهم ويذيقهم الوان الهـوان ... وقررت أن أقتله ، وقتلته فعلا ، لا بالسم ، وانمـا عن طريق معدته ، وكانت معدته ضعيفة لا تتحمل .. انك تدرك طبعا ما أعنى .

واوما المفتش ميرون براسه ايجابا ، وقال :

ــ وماذا عن مسيو شالون .. ؟

ــ لقد كان أكبر سنا عندما اقترنت به .

وقال ميرون فى نبرة ساخرة .

ــ وطبعا كانت معدته ضعيفة هو الآخر .. ؟

ــ تماما .. كانت معدته على غاية من الضعف والانهاك ، وكان هذا هو موطن مقتله ... كما كانت ارادته ضعيفة لا تقوى على المقاومة ، ولا تصـمد امام المغريات ..

وتابعت مدام شالون الحديث بقولها :

ــ وكان مسيو شالون هو الآخر حيوانـا قـذرا لا تعرف الرحمة الى قلبه سـبيلا ... كان يحب الطعام والأنبذة الجيدة ، ولم يكن يحفل الا بنفسـه .. كان يرى أبناء شعبه جياعا يتضورون بعد ما عانوا من أهوال الحرب ، بيد انه ما كان يحفل بهم ... كان كأنما يريد أن يأكل فى يومه ما يكفى الناس دهرا .. وقررت أن أقتله ، وطبعا عن طريق معدته ..

وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وسلطت على المفتش المسكين سحر عينيها ، فأشـاح بوجهه قليلا وقد جف حلقه .

واستطردت مدام شالون فى رقة :

ــ قد أكون قاتلة يا مسيو ميرون ، ولكننى قبل كل

شيء امرأة فرنسية ، تجيد فن الطهى ، وتعرف كيف تتفنن فى الوان الطعام ، وهكذا قررت ان يموت مسيو شالون ، كما مات من قبله مسيو فيسر ... نعم ... استقر رايى على هذا دون أن تلحقنى بادرة من الندم .

وفى صوت خفيض هادىء النبرات قال المفتش متسائلا :

ـــ هل لى ان أسأل كيف تم هذا يا سيدتى .. ؟

ومن جديد تلألأت على شفتيها الابتسامة الوضاءة، وبين جنبى مسيو ميرون رق قلبه وجيبا عنيفا .

وقالت : انك تعرف طبعا الوان الطعام التى اشتهر بها المطبخ الفرنسى ، مثل : ديك رومى محشو بالكستناء أو حمام محشو على الطريقة الهندية ، أو عجة على طريقة نابليون ، أو عصيدة ريفية ، الى غير ذلك من الألوان التى تتحلب لها الأفواه ، وتهفو اليها حتى المعدات الملأى .

وهتف مسيو ميرون وهو يلعق شفتيه بلسانه :

ـــ كفى يا مدام شالون ..! كفى .. ! انك تثيرين فى نفسى جوعا لا يقاوم .

وقالت : أنت الذى سألتنى أن أشرح لك أسلوبى فى القتل ... نعم ... لقد استعملت فى قتل أزواجى هذه الوصفات ومئات غيرها ... ومع كل طبق كنت أضع أيضا قطعة من ...

وبغتة أمسكت عن الحديث .

ورفع اليها مسيو ميرون بصره ، وقال متسائلا فى اهتمام بالغ :

ـــ ما الذى كنت تخفينه فى كل طبق يا مدام شالون .. ؟

وقالت : انك طبعا تحريت عنى ، وعرفت من يكون أبى .

وأجاب : طبعا ... انه جان مار فيلروا ، التلميذ الفذ النابغ لاسكوفييه ، والذى وصف بعد وفاة اسكوفييه بأنه خليفته القدير ، والوحيد الذى عرف كيف يشغل المكان الشاغر .

ــ هذا صحيح ... اننى أعرف كل هذا عن أبيك ... كان أشهر طباخ فى فرنسا .

ومضت مدام شالون تقول :

ــ وقبل أن يموت أبى ببضعة أعوام لقننى فن الطهى ، وبرعت فى هذا الفن الى درجة جعلت أبى يشهد لى بالنبوغ ، حتى لقد قال اننى استطعت أن اضاهيه مقدرة وبراعة .

وابتسم مسيو ميرون وهو يقول :

ــ انى أحنى رأسى يا سيدتى اعجابا بك ...

ثم مضى يقول دون أن يهىء لها فرصة لمقاطعته :

ــ انك قلت انك كنت تخفين فى كل طبق قطعة من ... ولم تكملى عبارتك ، فما الذى كنت تخفين فى صحاف الطعام ... ؟

ونهضت مدام شالون واقفة ، واستدارت تتأمل مياه البحر الزرقاء عبر النافذة المفتوحة .

وراح المفتش شالون يتأمل قوامها ... كان لها قوام ممشوق ، وكان جسمها رغم الأربعين التى بلغتها جسم فتاة فى نضج الشباب ، أما ساقاها ... وتأمل ساقيها ، واختلجت عيناه ، وغص بريقه ... الحق انها امرأة فاتنة .

وأجابت : فى كل طبق أقدمه لزوجى كنت أضع

قطعة من فنى ... نعم يا سيدى المفتش .. قطعة من فنى ، ولا شيء أكثر من هـــذا ... ذلك الفن الذى تلقيته عن أبى فحـــذقته وبرعت فيه ... فن الطهى الفرنسى ، فمن الذى يستطيع أن يقاوم ..؟ لافيسر ، ولا شـــالون طبعا ... كنت أقدم الى كل منهما خلال اليوم الواحد أربع وجبات ... وجبات دسمة ، ويقبل الرجل منهم على التهام الطعام بشكل شره ، دون أن يعبأ بأن يصاب بالتخمة ، ثم ينطرح بعـــدها على الفراش كليلا منهكا لاهث الأنفـــاس ، فكيف تريد من زوجى أن يعيش طويلا بعد كل هـــذا الطعام الدسم بكمياته الوفيرة التى يحشو بها معدته حشوا ، كأنما هذا هو آخر زاد يقتات به ! ..

وران عليهما الصـــمت برهة طويلة ، والمفتش ميرون يتطلع اليها ، ونظراته سابحة فى صـــدرها الناهد ، غارقة فى قوامها الشهى .

وبغتة قالت مدام شالون :

ـــ على أن هذا ليس هو كل شيء ... كما قلت لك كنت أقدم لزوجى فى الطعام قطعة من فنى ، وبعد أن يفرغ من طعامه كنت أقدم اليه قطعة من ....

وصمتت ، فقال يستحثها فى لهفة :

ـــ قطعة من ...؟

وردت : قطعة من .. من حبى .. !

فقال فى دهشة متسائلا عما تعنى :

ـــ قطعة من حبك .. ؟ ما الذى تقصدين .. ؟

ـــ أقصـــد ما قلت ... انك تعرف ان المـــرأة الفرنسية أبرع نساء العالم فى فن الحب والاغراء .. انها تمنح الرجل جسدها بطريقة مثـــيرة لا يحذقها

غيرها .. الفرنسية تستطيع بأسلوبها الخاص أن تحرك فى الرجل أعنف الغرائز الجنسية وأشدها ضراوة .

وسرح المفتش ميرون ببصره بعيدا ... كان يحاول أن يتخيل مدام شالون فى الفراش ، وزوجها بين أحضانها ، وهى تمارس معه فن الحب فى براعة منقطعة النظير ، بعد أن مارست على مائدة الطعام فن الطهى .

وقالت مدام شالون متابعة حديثها :

ـــ نعم ... هذا ما كنت أفعله بأزواجى يا سيدى المفتش ... قطعة من فن الطهى ، وقطعة من فن الحب ... فهل كانوا يستطيعون أن يصمدوا .. ؟ وهكذا ماتوا بعد عامين من الزواج ... مات مسيو فيسر فى السابعة والخمسين ، ومات مسيو شالون فى الخامسة والستين ... وكأنهم كانوا سعداء .. لقد عرفوا كيف يعيشون ويتمتعون .. تمتعوا بأطايب الطعام ، وتمتعوا بملذات الحب .

وساد صمت طويل ، وشذى زهور الحديقة يعبق أجواء الغرفة بنسمات مسكرة .

وبغتة هب المفتش ميرون واقفا وهو يقول :

ـــ سيدتى ... هل لك أن تصحبينى الليلة الى نيس يا مدام شالون .. ؟

فتساءلت : الى مركز الشرطة يا سيدى المفتش .؟

فأجاب : بل الى الكازينو يا مدام شالون .. الى الشمبانيا والموسيقى والرقص ... وهناك تتاح لنا فرصة أكبر لمزيد من الحديث .

فقالت : ولكن يا مسيو ميرون ... انك ...

فبادر يقاطعها : اسمعينى يا سيدتى .. اننى أعزب غير متزوج ، وعمرى ٤٤ سنة ، ولست دميما ، ولدى فى البنك بضعة آلاف من الفرنكات ... اننى لست حقا صيدا سمينا ، ولكننى على أية حال لست بالرجل المنبوذ .

ونظر فى عينيها وقال فى صوت مضطرب النبرات :

ـ سيدتى .. انى أريد أن أموت على يديك ... قطعة من فن الطعام ، وقطعة من فن الحب ... اننى يا سيدتى أشتهى وصفاتك .. !!

دعــــابة قاتلة

كانت هذه هى فكرة برادلى .

كانت ليلة مملة بغيضة تنقبض لها الأنفاس ، وفى الغرفة الصغيرة الضيقة فى مقر ادارة الشرطة كان منــدوبو الصحف مجتمعين ، يتســقطون الأنبــاء ، ويتمنون أن يقع شىء ــ أى شىء ــ ليبادروا به الى صحفهم ، مبتهجين بالأحداث والكوارث المثيرة .

وكان برادلى ــ مندوب الاكسبريس ــ قد ضاق ذرعا بهذا السكون المخيم ، بعد أن أمضى ساعة كاملة يعبث فى سلسلة مفاتيحه تزجية للوقت .

وقال برادلى على حين فجأة :

ــ اسمعوا .. ! لم لا ندبر « مقلبا » لصاحبنا بوب .. تعالوا نعبث به ... مجرد دعابة .

وبوب هندرســـون هو الحارس الليلى للمشرحــة التى كان مقرها فى بدروم المبنى .

كان بوب قد أشرف على السبعين من عمره ، بطىء الحركة ، متراخى المشــية ، وكان عقــله أقل بطئا وتراخيا ، واذا كانت الشيخوخة قد هدت جســـمه ، فقد كانت أشد وطأة على عقله وتفكيره .

وكان ينبغى أن يحال الى التقاعد منذ سنوات ، ويترك خدمة البلدية ، لولا أنه كان مرتبطا بالتزامات أسرية تدعوه الى مواصلة العمل ، اذ كانت لديه زوجة مريضة الزمها الشلل فراشها ، فما كان من البلدية الا أن مدت خدمته ، حدبا عليه واشفاقا .

والتفت فيرنس الى زميله برادلى ، وقال متسائلا :
ـ اى نوع من الدعابة يا ترى . . ؟
وكان فيرنس هو مندوب مجلة ريكورد الموكول اليه تغطية أنباء الجرائم .
واستطرد فيرنس : بالله عليك دع بوب وشأنه ، ولا تتعرض له . . . انه رجل محدود التفكير ، ولا يمكن أن يهضم المقالب والدعابات .

ولكن برادلى لم يكن بالرجل الذى يتراجع وينكص على عقبيه بسهولة . . . انه رجل مولع بالدعابات العملية ، وقد عرف بين أقرانه بأنه قدير على ابتكار المقالب المضحكة ، وما كان يعنيه أبدا أن يتخذ أى انسان هدفا لدعاباته . . . كل ما يهمه هو أن يدبر مقلبا .

ومضى برادلى يتحدث ويتحدث ، محاولا أن يقنع زميله بما اقترح ، ولما كان فيرنس من طراز يمقت الحوار والمناقشات فقد وجد نفسه أخيرا يجارى برادلى فى فكرته ، تفاديا لهذا اللجاج الذى يمقته .

أما مورجان ـ مندوب الكرونيكل ـ قد جارى برادلى دون اعتراض ، وذلك انه كان قد احتسى قبل ذلك ثلاثة كؤوس من الويسكى جعلته سلس القياد ، يوافق على أى رأى يعرض عليه .

وهكذا لم تمض لحظات حتى كان المندوبون الثلاثة يهبطون سلم المبنى،متجهين الى المشرحة فى البدروم.

كان بوب هندرسون جالسا فى مكتبه داخل المشرحة المعتمة المقبضة للنفس ، منتظرا انتهاء نوبته ، حتى يغادر المكان الى داره ليرعى زوجته المشلولة . . . ولم يكن فى غضون الانتظار يسلى نفسه بالقراءة ،

فقد كان ضعيف النظر ، ترهق القراءة عينيه ، بل انه لم يكن يستمع الى الراديو ، وانما كان مستويا على مقعده ، شــارد الفكر ، يترقب انتهــاء نوبة حراســته .

وهناك فى المشرحة ، وعلى امتداد الجدار ـ كانت هنــاك عشرون فجوة ، تتسع كل منها بكل صــعوبة لجثــة رجل لا ينوى طبعا أن يتقلب على جنبيــه ، وواضح ان كل من يشغل هذه الفجوات عاجز بداهة عن الحركة ... وكانت هــذه الفجوات باردة الى مستوى دون درجــة التجمد . ولمــا كانت المدينــة كبيرة متســعة المدى ، فقــد كانت معــروفة بكثرة الحوادث ، مما جعل معظم هذه الفجوات مشغولة بالجثث .

وقال برادلى فى صوت خفيض يخاطب الحارس .

ـ بوب ... اننا نريد أن نلقى نظرة على رقم ١٠ فقد يكون هو مدير البنك الذى اختفى ، دون أن يترك وراءه أثرا .

وقال بوب مرددا فى صوت خامل :

ـ رقم ١٠ ؛ لكم هذا ما دمتم تريدون .

ونهض واقفا فى تراخ وكسل ، ومشى أمامهم يمر بالفجوات التى تضم الجثث ، حتى اذا انتهى الى رقم ١٠ ، تقدم منها ، ورفع مزلاج الباب ، وسحب الى الخارج اللوح الخشبى الذى ترقد فوقه الجثــة . وكانت الجثة مغطاة بملاءة بيضاء تسترها ، وأزاح برادلى الملاءة متظاهرا بأنه يتأمل وجه الجثمان .

وقال برادلى وهو ما زال منحنيا فوق الجثة :

ــ انه يشبهه الى حد كبير ... انظروا ... ان الأوصاف تكاد تكون متطابقة ....

ثم تحول الى بوب قائلا :

ــ بوب .. أرجو أن تحضر سجل رقم ١٠ لنطلع عليه حين يتسنى لنا مطابقة الأوصاف .

وأجاب الحارس العجوز فى وداعة :

ــ بكل ارتياح يا سيدى .

واستدار الرجل راجعا الى مكتبه ليأتى بالسجل ، يشق طريقه عبر القاعة فى خطى متراخية ، وغمز برادلى بعينيه لزميله فيرنس ، فتبع بوب هندرسون الى مكتبه .

وما غاب الرجلان عن النظر حتى انهمك برادلى وزميله ذلك السكير مورجان فى اعداد المسرح للدعابة العملية التى اقترحها برادلى .

وحرص فيرنس على ان يستبقى بوب فى مكتبه فترة طويلة ، بحجة أنه يدرس السجل ، وبقى الرجلان هناك حتى لحق بهما مورجان .

وقال مورجان : لا داعى لأن تشغل نفسك بالأمر يا بوب ... لقد ادركنا اننا كنا مخطئين ، فعد الى المشرحة ، وارجع رقم ١٠ الى فجوته ... هيا يا فيرنس نصعد الى الطابق الأعلى لنتابع ما جد من أنباء الحوادث ..

وغادر المندوبان غرفة المكتب ، وسارا فى الدهليز متجهين الى السلم ، ولكنهما ما لبثا أن توقفا عند المنعطف ، وهما يغالبان الضحك ، منتظرين مشهد الدعابة المدبرة .

وأعاد بوب السجل الى موضعه من الدولاب فى صبر ودون تعجل ، وبنفس الحركة البطيئة المتراخية ارتد راجعا الى قاعة المشرحة ، ليودع الجثة رقم ١٠ فى فجوتها .

كان بوب على مسافة أربعة أمتار من اللوح الذى ترقد فوقه الجثة حين شاهد الملاءة تهتز وتتحرك ، وحين صكت مسامعه آهة عميقة تنبعث من تحت الملاءة . ثم بدأ الهيكل الذى تغطيه الملاءة ينتصب جالسا فوق المحفة ، ثم انزلقت الملاءة من فوق الوجه، وفى العتمة التى تسود القاعة ، لم يستطع بوب لضعف بصره ان يدرك أن الذى يراه انما هو وجه برادلى .

وفى صوت ممطوط أجوف النظرات قال برادلى :

ــ يا الهى .. ! أين أنا .. ؟ ما هذا الذى فعلتم بى .. ؟

وتسمر بوب مكانه ، وقد جحظت عيناه ، وهو يحملق فى العتمة التى تشتمل المكان .

وبسط برادلى ذراعه أماما ، وأومأ الى بوب ، وهو يقول بنفس الصوت المطوط الأجوف البعيد المدى .

ــ أنت .. ؟ ما الذى أردت أن تفعله بى .. ؟ انك حاولت أن تقتلنى .. !

كانت دعابة عملية قاسية وعنيفة الوطأة ، ولكنها من وجهة نظر برادلى دعابة طريفة مبتكرة ، أثمرت ما كان يتوقعه منها ، فالرجل عجوز امتدت به الأعوام، والشيخوخة عدت الى ذهنه وأعجزت فيه التفكير السليم ، فكان جديرا بأن تحدث فيه هذه الدعابة التأثير المنشود .

تجمد بوب هندرســـون فى خطـــاه على الفور ، واختنقت أنفاسه ولهثت ، وفى اللحظة التالية كان قد انطلق راكضــا الى الســـلم بأقصى قوته ، وبقـــدر ما سمحت شيخوخته ... نعم .. كان يجرى بسرعة فائقة لم يعهدها فى نفسه الا حين كان فى العشرين .

وكان يصيح أثناء ركضه صارخا :

ـ يا الهى .. ! انه حى .. ! انه حى .. ! لقـــد رجع الى الحياة .. !

ثم صرخ ينادى : سيرجـــانت روبرتس .. ! تعال حالا .. ! احدى الجثث بعثت من الموت .. ! عادت الى الحيـــاة .

وفى جـــريه تجاوز فيرنس ومورجـــان اللذين كانا منزويين عند منحنى الدهليز يتلذذان بالمشـــهد الذى يريان ، وهو يغالبان الضحك ، فى حين كان العجوز بوب يطوى الدرجات صاعدا الى الطابق الأعـــلى ، متجها الى السير جانت القائم بالنوبة الليلية . أما ديف برادلى فنزل من فوق المحفـــة ، وردها الى داخـــل الفجوة ، ودفع الباب يوصده .

وقال برادلى لصاحبيه ، وهو يجلجل ضـــاحكا ، والضحكات توشك أن تخنقه .

ـ هيا بنا نصعد من السلم الخلفى قبل أن ينزل السير جانت ويرانا :

وبادروا يرتقون درجات السلم الاضافى ، راجعين الى غرفة الصحافة . وسمعوا الحارس الايلى يهبط الى البدروم مع الشرطى القائم بالنوبة الليلية ، وهو السير جانت روبرتس المعروف بالشراسة وضـــيق

وكان بوب لا يزال مبهورا مذهولا لغرابة المشــــهد الذى رآه منذ قليل حين شاهد الجثة تتحرك .

وسمعوه يردد فى صوت بادى الانفعال :

ــ لقد رأيته بعينى رأسى يا سيرجانت ... رأيته يجلس فوق المحفة ... نعم ... رأيته يجلس ، ثم نظر الى وبعد ذلك ...

وخمدت الأصوات وتضاءلت ، فلم يعد الصحفيون يسمعون شيئا بعد أن انعطف الرجلان الى الســـلم المفضى الى قاعة المشرحة .

وأغرق مورجان فى الضـــحك فى شىء من القلق ، ثم أمسك ولم يعد يضحك ، أما فيرنس فكان ناقما على نفسه لاشتراكه فى هذه المهزلة ، فأشعل سيجارة ينفث بها عن سخطه ، وسحب منها نفسا أو نفسين ، ثم قذف بها الى الأرض ، ومضى يدعكها بقدمه يسحقها فى عنف وشـــدة .

وان هى الا ثلاث دقائق حتى سمعوا وقع أقـــدام السير جانت فى المشى ، وهى تدق الأرض بشدة ، ثم رأوا باب الغرفة يفتح ، واذا بالسير جانت يصرخ فيهم مزمجرا فى غضب .

ــ هيه .. ! ماذا فعلتم .. ؟ تحســـبونها دعابة لطيفة ، وهى نكتة سمجة سخيفة .. ! الا تبا لكم .. !

ولـــما كان السير جانت يعلم أنه لا يستطيع أن يعادى الصحافة ، فقد آثر أن يكتفى بهذا القدر من الكلمات الساخطة ، فانسحب على الفور ، وأوصد الباب وراءه .

وقال ديف برادلى وهو يقهقه عاليا !

ــ أرايتم سحنة السير جانت وكيف كانت متقلبة .؟

ثم أردف : ما بالكم أيها الأصــــدقاء .. ؟ لم لا تضحكون .. ؟ الا تروق لكم المقالب والدعابات .. ؟

ولكن زميليه ظلا جامدين لا يستجيبان ولا يضحكان.

وعاد يقول : ليت شعرى ما الذى دهاكم .. ؟

واخيرا قال فيرنس وهو ينهض واقفا :

ــ انى منصرف ، واذا سألت الصحيفة عنى فقولوا لهم انى ذهبت أتحرى عن بعض الحوادث .

وغادر الغرفة مسرعا .

وقال برادلى مزمجرا فى غضب :

ــ ما الذى دهاه .. ؟ انه يبدو غاضبا .

وكانت وطأة الخمر قد بدأت تنجــــاب عن راس مورجان فهز كتفيه وهو يقول :

ــ لعل فكرة دعابتك لم تكن ملائمة .

ثم أردف : انى خارج انا ايضا لأتناول كأسا انطلق بعدها الى بيتى .

وغادرا الغرفة بدوره .

وتجهم وجه برادلى ، وتناول سيجارا من علبته أشعله وجذب منه عدة أنفاس متلاحقة .

وغمغم برادلى يخاطب نفسه :

ــ ما أغبى أولئك الذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بالدعابات .. أنهم قوم سخفاء .

وفتح الباب للمرة الثانية ، واذا بالقادم هو بوب اندرسون نفسه .

وقال حارس المشرحة فى صوت هادىء :

ــ ما كان ينبغى يا مستر برادلى أن تفعــل بى هــذا .

لم يكن صوته غاضبا ، ولا ساخطا .. كان صوتا عاديا متجردا من نبرات الانفعال ، كمن يتحدث فى شأن يخص سواه .. لقد فزعت فزعا شديدا ، ومع ذلك فهذا أمر لم يضايقنى كثيرا ، أما الذى آلمنى حقا وأزعجنى ، فهو اننى آثرت غضب السير جانت حين استنجدت به ، ثم وجد أن الأمر لم يتمخض عن شىء ... لقد صب نقمته علي ، وانهال على لوما وتقريعا .

واستطرد بوب قائلا : حين خف الى مسرعا ، ونزلنا الى المشرحة ، وجدنا أن جميع الجثث كما كانت وفى البداية اتهمنى بأننى فريسة الوهم ، وانني أتخيل أشياء لا وجود لها . ولكن حين قلت له أن مستر برادلى وصاحبيه كانوا قد جاءوا الى فى البدروم ، وانهم طلبوا مشاهدة الجثة رقم ١٠ ، ادرك على الفور ان هذا الحادث ما هو الا احدى الاعيبك المعروفة .

وأمسك بوب هندرسون برهة يسترد أنفاسه اللاهثة ، وهو يحدج برادلى بنظرات جامدة لا تنطوى على شىء من المقت ، وذلك فى حين كان برادلى ينفث دخان سيجاره فى شىء من القلق .

واسترسل بوب يتم حديثه :

ــ لقد أنذرنى السير جانت بأنه سينهى خدمتى ويحيلنى الى التقاعد كما كان ينبغى أن يفعل منذ سنوات ، وذلك اذا ما أزعجته مرة أخرى حين أتعرض لبعض الدعابات ، أو حين أرتكب أى خطأ .

واختتم بوب هندرسون كلماته بقوله :

ــ انك تعرف يا مستر برادلى اننى لا أستطيع الآن أن أستقيل وأتقاعد ... اننى فى حاجة الى مرتبى من أجل امرأتى المشلولة المريضة .

ثم أردف فى لهجة متوسلة :

ـ أرجو يا مستر برادلى أن تكف معى منذ الآن عن دعاباتك ونكاتك ، حتى لا أستهدف لغضب السير جانت .

ثم استدار يغادر الغرفة ، فى حين لم يحاول برادلى أن يتفوه بكلمة واحدة ، وكان كل ما أتاه هو أنه هز كتفيه بلا احتفال ، ومضى ينفث دخان سيجاره فى حلقات متتابعة ، وقد اشتد به القلق .

* * *

دق جرس التليفون ، ورفع ديف برادلى السماعة وقال :

ـ هنا مكتب الاكسبريس .. حسنا .. الطبع ابتدأ .. ؟ كل شىء هادىء هنا ... لا حوادث اطلاقا ... انى عائد الآن الى بيتى ... لا تتصلوا بى الا صباح الغد .

ورد السماعة الى موضعها ، وجذب من سيجاره عدة أنفاس متلاحقة ، ثم نهض واقفا ، وغادر الغرفة .

حين خرج الى الطريق الذى يشتمله الظلام طغى عليه شعور بالتردد والارتباك .

هاهى ذى دعابته قد أخفقت وانهت بالفشل ، ولم تثر ضحكات أحد من الناس ، وبرادلى رجل لا يهفو الى النساء ، ولا يستطيب الخمر ، وكل ما يمتعه هو أن يعيش مرحا ضاحكا ، ينثر نكاته ودعاباته يمينا ويسارا ، ويملأ الجو بضحكات مجلجلة ، ولكن دعابته الأخيرة لم تلق من المرح ما كان يتوقع .

وتمنى برادلى فى هذه اللحظة أن يتناول كأساً من الخمر يسرى به عن نفسه ما عراه من اكتئاب ، ولكنه لم يشأ أن يرتاد البار الذى مر به ، والذى ألف هو ورفاقه أن يختلفوا اليه ، وانما آثر أن يختار بارا صغيرا منزويا ، حتى لا يلتقى بصاحبيه فيرنس أو مورجان ، فان أحدا من مخبرى الصحف لا يمكن أن يتردد على هذه البارات الوضيعة الواقعة وسط أرصفة الميناء .

كانت الحانة التى دلف اليها صغيرة وقذرة ، ولكن الويسكى كان من نوع جيد . وبعد الكأس الثالثة عاوده مرحه واسترد حيويته . أما الكأس الرابعة فجعلت روح الدعابة تصطخب فى صدره من جديد ، واذا به يخطط من جديد لدعابة أخرى .

ما معنى أن يمر المساء دون دعابة يضحك لها الناس ... ان الأمسية التى تنقضى دون مرح ، ودون ضحكات تنطلق من الأفواه ويجلجل بها المكان ــ لهى ساعات ضائعة لا تحسب من العمر ... نعم ... لابد من دعابة عملية يضحك لها من الأعماق، وتبا لفيرنس ومورجان ، فهما جامدان غبيان لا يفهمان فن الضحك .

* * *

تطلع ديف برادلى فيما حوله .

كانت الساعة قد شارفت على الثانية بعد منتصف الليل ، وكانت الحانة ساكنة تكاد تخلو من الرواد ... لم يكن فيها سواه الا الساقي وشخص ضئيل

الجسم شديد النحافة يجلس الى البار ، وأمامه قدح مترع من البيرة .

وتأمل برادلى الرجل الهزيل ، وتشكلت فى ذهنه الدعـــابة العملية ، وكاد يطلق ضـــحكة عالية لفرط اعجابه بما ابتكر .

انحنى برادلى الى أسفل متظاهرا بأنه يربط رباط حذائه ، ولكنه كان يفعل شيئا آخر .

لقد دس عودا من الكبريت فى مقدمة حـــذاء الرجل النحيف الضئيل الجسم وأشعله ، ثم اعتدل جالســـا ، وطلب قدحا من الويسكى ، ولبث ينتظر ما ســـوف تسفر عنه دعابته ، وفى أعماق صدره تتردد ضحكة مكتومة ترقبا لمـــا سوف يحدث .

واستدار ناحية الرجل النحيف وهتف به :

ـــ انتبه . . ! انتبه . . !

وحملق الساقى فى برادلى دون أن يدرك ما دعاه الى هذا التحذير ، أما برادلى فكان يبتسم وهو يغالب الضحكة التى توشك أن تنفجر من حلقه .

وعنـــدئذ أطلق الرجل الضئيل صرخة داوية حين لسعت نار الكبريت قدمه ، وهب واقفا على ساق واحدة ، ومضى يحاول فى حركات عصبية أن يطفىء بيده العارية النار المشتعلة .

واطلق برادلى الضـــحكة التى حاول جاهـــدا أن يكتمها .

وحين فرغ الرجل الضئيل من اطفاء لهيب الثقاب استدار متحولا الى برادلى وقال له :

ـــ يا نذل . . ! انت الذى فعلت هذا . . !

ثم طوح ذراعه ، وسدد الى برادلى لكمة قوية .

واســـتقرت اللكمة على فك برادلى ، وترنح وهو جالس على مقعده أمام البار ، وعجز عن أن يمسك بحافة البار ، فتطوح ووقع على الأرض ، وفى سقوطه ارتطمت راسه بالسياج النحاسى المثبت أسفل البار ، والذى يضع عليه الجالسون أقدامهم ــ ثم أظلمت الدنيا أمام عينيه ، وغاب عن الوعى .

وتطلع اليه الرجل الضئيل الجسم بنظرات وحشية وهو يقول فى غضب :

ــ أيها الحيوان ... تريد أن تلسع قدمى بالنار ... ها أنت قد لقيت جزاءك .

ودار ساقى الحانة حول طاولة البار وهـــو يقول :

ــ انك سددت اليه لكمة عنيفة يا ويلكنز .. ها هو ذا راقد بلا حراك .

وأجاب الرجل الضئيل : انها مجـــرد لكمة عادية ولن يعدو أثرها اطارة بعض أسنانه أو لخلختها ... هذا سوف يلقنه درسا لا ينسى أن فكر مرة أخرى أن يقوم مرة أخرى بمثل هـــذه الدعابات الســـمجة الثقيلة .

وقال الساقى : أنه يبدو أشبه بالميت ..

وجثا الساقى بجوار الرجل الطريح على الأرض ، وراح يجس نبضه ، ثم مال فوقه يســـتمع الى دقات قلبه .

وأخيرا رفع الساقى رأسه ، وغمغم يقول :

ــ أنه ميت ... نعم ميت بكل تأكيد .

وهتف الرجل الضئيل :

ــ ماذا تقول .. ؟ ميت .. ؟ ولكنى لم أسدد اليه الا ضربة عادية ... انه مجرد حادث يا مايك ...

حادث بالقضاء والقدر ... أليس كذلك .. ؟
واجاب الساقى : بكل تأكيد يا ويلكنز .. مجرد حادث بالقضاء والقدر .

ومشى الساقى مسرعا الى باب الحانة فأغلقه ، ووضع خلف الزجاج لوحة : « المحل مغلق » ، ثم أطفأ جميع الأنوار الخارجية ، ورجع ثانية الى جانب برادلى .

وغمغم الساقى وهو منكب على الجسم الطريح على الأرض يفتش جيوبه ويخرج ما فيها .

ــ ان الأمر سىء جدا يا ويلكنز ... حسبى ما القى من الشرطة من متاعب ، فكيف تكون حالى معهم حين يجدون فى حانتى رجلا ميتا .. ! ثم انك متهم من قبل بالعديد من تهم الاعتداء والضرب .

وقال ويلكنز مغمغما فى صوت غاضب :

ــ أعرف هذا ... أعرف هذا ... انك تعرف اننى عصبى شديد الغضب ... ولكن ما العمل الآن .. ؟ كيف يمكن أن نتخلص من هذا المأزق .. ؟

وفتح الساقى المحفظة التى كان قد أخرجها من جيب برادلى ، وتطلع الى البطاقة الملصقة بها ، وهتف :

ــ يا الهى .. ! أتدرى من يكون هذا الرجل .. ؟ انه أسوأ من الشرطة .. انه من رجال الصحافة .. انه مندوب الاكسبريس .

وقال ويلكنز فى مرارة :

ــ صحفى ..! هذه نكبة ... ان الصحف ستحمل على حملة شديدة ... ما العمل الآن يا صديقى .. ؟

واجاب الساقى : لا تبتئس .. ! لقد طرأت ببالى فكرة .. يجب ان نخرجه من هنا ... نذهب به الى رصيف الميناء ونلقيه هناك ... سيبدو الأمر بعد ذلك وكأنه كان سكرانا ، فتعثرت قدمه ، وسقط أرضا .

وصاح الرجل الضئيل الجسم فى ابتهاج :

ـ يالها من فكرة رائعة يا مايك .. ! فى الساعة السادسة صباحا سوف تقلع باخرتى ، ولن أعود مرة أخرى الى هذه الميناء ...

وقال الساقى : الآن هيا بنا نحمله الى الخارج ، ولكن علينا قبل كل شيء أن نجرده من أوراقه وبطاقة تحقيق الشخصية حتى لا يتبين أحد اسمه ، وبذلك يتأخر التحقيق ، وتكون أنت قد رحلت بعيدا عن هذا المرفأ .

وأفرغ الساقى محتويات الجيوب ، ولم يدع فيها شيئا يدل على شخصيته .

وتعاون الرجلان ، وحملا الجثة فيما بينهما ، وخرجا بها من الحانة من باب خلفى صغير يفضى الى حارة مظلمة تنتهى الى رصيف الميناء .

* * *

استعاد ديف برادلى رشده بعد فترة من الوقت ، ولكنه كان لا يزال شبه غائب عن الوعى ، وكان تفكيره مشلولا لا يقوى على التركيز .

لم تكن فى رأسه الا فكرة واحدة مشوشة ليست لها معالم واضحة ... انه يذكر أنه سقط على

الأرض ... ويذكر ان راسه قد ارتطمت بشيء صلب ... شيء شديد الصلابة ... لقد أحس عندئذ بأن عنقه قد تهشمت ... تماما كما حدث له منذ عشر سنوات حين كان يلعب الكرة مع فريق الجامعة ... لقد لزم الفراش عندئذ شهرا كاملا ، كان خلاله لا يقوى على الحركة .

وفيما تدور هذه الخواطر فى ذهنه سمع الى جانبه صوتا يتكلم ، ولفرط اضطراب ذهنه وعجزه عن التركيز خيل اليه أن الصوت آت من بعيد ... من مكان سحيق .

لقد وجدوه طريحا على رصيف الميناء ... كان جسمه باردا يكاد يتثلج ، فالليلة شديدة البرودة كما ترى ... لقد عثر عليه الشرطى مافى ، وجاء به الى هنا حين وجد أن قلبه متوقف عن النبض ..

ـ ومن يكون هذا الرجل .. ؟

ـ لا أدرى ، فان مافى لم يجد معه ما يدل على على شخصيته .. انه لك على أية حال ، فتول أمره ، وغدا يجرى تشريحه .

وسكت الصوت الذى كان يتكلم ، وشعر برادلى أنه قد رفع الى أعلى ، وانهم يحركونه ، واستطاع أن يفتح عينيه قليلا ، ولكنه كان ما يزال عاجزا عن الحركة ، وعن الحديث ... انه نفس الشلل الذى نزل به منذ عشر سنوات حين أصيب أثناء لعب الكرة مع فريق الجامعة .

بيد أن هذه الأصوات التى تتحدث كانت مألوفة لديه ... نعم ... أنه يعرف هذا الصوت ... انه يعرفه تماما .. أنه بوب هندرسون حارس المشرحة العجوز .

كان بوب فى هذه اللحظة قد مد ذراعى برادلى الى جانبيه ، وأمسك بالملاءة يفردها لكى يطرحها على وجهــه .

وجاهد برادلى أن يتكلم ... حاول ، وحاول .

وأخيرا أستطاع أن يقول : بوب ... ! بوب ... ! اننى حى ..! اننى لم أمت .. !

بيد أن صوته كان همسات خافتة ... همســات متقطعة ... فان الشلل الذى أصيب به برادلى كان له تأثيره على حبال صــوته .

وسمع الحارس العجوز همسا بجانبه ، وان لم يتبين معالم الكلمات . وحملق يتطلع الى « الجثة » ولكنه ما لبث أن كذب ما ســمع ، وعزا الأمر الى الوهم والخيال .

وعاد برادلى يحاول أن يتكلم من جديد :

ــ بوب .. ! أنا برادلى .. أنا حى لم أمت .. استدع طبيبا ... أرجوك .. !

وأطلق الحارس العجوز ضحكة هازئة وقال :

ــ أهــذه دعابة أخرى كتلك التى أوقعنى فيهــا مستر برادلى هذا المساء .. ؟ يبدو اننى بدأت أخرف ... بدأت أتوهم اننى أسمع الجثث تتحدث .. !

وفرد الملاءة فوق « جثة » برادلى ، واســتطرد الحارس يقول لنفســه :

ــ لو اننى ذهبت الى السير جانتت لأقول له ان هذه الجثة تتكلم لفصلنى على الفور .

ودفع هندرسون العجوز النقالة الى داخل الفجوة رقم ١٥ ، وأوصد الباب بالمفتاح .

وفى داخل الفجوة كان برادلى راقدا فوق اللــوح الخشبى ، مشلولا عاجزا عن الحركة وعن الكلام .

وبدأت عضلاته تتجمد ، فقد كانت الفجوة مكيفة الهواء ، وحرارتها تهبط الى ما دون الصفر ، حتى تصل الى درجة التجمد .

وتثلجت عضـــلات برادلى رويـــدا رويدا ، وراح يترقب مصيره المحتوم ، فى حين كان الحارس العجوز بوب هندرسون جالسا فى مكتبه داخل المشرحة ، وهو يردد فى ذهنه :

ــ لقـــد تورطت هـــذا المساء فى دعـــابة برادلى السمجة ، أما هذه المرة فقد كنت حريصا منتبها ... اننى لا يمكن ان أخدع مرتين فى ليلة واحدة .

الصـــورة العـــارية

كانت الساعة قد شارفت على منتصف الليل .
كنت قد ادركت عندئذ أننى ان لم أشرع الآن فى تسجيل هذه القصة ، فانها لن تكتب أبدا .

وطول المساء وأنا جالس الى مكتبى أحاول أن أحمل نفسى على أن ابدأ ، ولكن ما أن افكر فى تفاصيلها ودقائقها حتى ازداد خجلا من نفسى ، ويشتد بى شعور طاغ بالاثم والعار ، وأمضى اتساءل : لم فعلت هذا ؟ .. لم أقدمت على هذه الفعلة الدنيئة الشنعاء .

كانت الفكرة التى راودتنى هى أن أحاول عن طريق الاعتراف والتحليل ان اكتشف السبب ، أو على الأقل ان ادرك ولو مبررا واحدا لسلوكى الشائن البغيض ازاء جانيت دى بيلاجيا .

كنت أهدف أساسا الى أن اتوجه باعترافاتى الى انسان خيالى من وحى تصورى .. انسان يصغى الى فى عطف واهتمام .. شبح اتخيله ينصت الى ما أقول فى تفهم ورقة ، حتى يكون فى مسلكه ما يشجعنى على أن اروى له تفاصيل هذه المأساة المحزنة .

ولكى أكون منصفا مع نفسى وأمينا فى اعترافاتى ؛ فانه ينبغى أن اعترف بأن الذى يؤرقنى ويمضنى المـــا اكثر من اى شىء ــ ليس شعورى بالعار ، أو حتى ندمى على ما انزلت بجانيت المسكينة من ضرر وأذى .

وانما الذى يشقينى ، هو معرفتى بأننى جعلت من نفسى أضحوكة منبوذة عن الناس جميعا .

كانت لى عند أصدقائى مكانة مرموقة ، فهم جميعا يختلفون الى دارى ، ويلبون دعواتى مغتبطين ، ويقبلون على مآدبى سعداء راضين . اما اليوم ، فهم يرون فى ذلك الرجل الشرير .. الرجل المنتقم الحقود الذى يتلظى قلبه كراهية .

نعم . هذا هو ما يشقينى ، وسوف تدرك ما أعنى اذا ما عرفت ان أصدقائى هم حياتى .. انهم كل شىء عندى ، وبدونهم لا حياة لى ولا هناء .

والآن دعنى ايها القارىء أحدثك عن نفسى قليلا .

* * *

اننى بين الناس طراز وحده .. طراز فذ لا نظير له .. اننى رجل مترف ، واسع الثراء ، متقف كثير الاطلاع . والى جانب هذا يحوطنى رهط من الأصدقاء ، يحبوننى ويعجبون بى أشد الاعجاب ، لما حبانى به الله من لباقة ، وجاذبية ، وثراء وثقافة ، وكرم وسخاء . فهذه كلها شمائل رائعة تجذب الناس .

أما اموالى هذه فجاءت الى عن طريق ابى . ولا اكتم عنك ايها القارىء اننى لم اكن أحترم ابى وأنزله من نفسى منزلة كبيرة .. ذلك أنه كان محدود الثقافة ، نادر الاطلاع : انه لا يعرف شيئا عن كبار المصورين ، ويجهل الفرق بين اللوحة الرائعة والصور التافهة

التى يرسمها المبتدئون .. واذا أنت سألته عمن يكون بيتهوفن أو شوبان لأعياه الجواب .

اما أنا ، فعلى النقيض من أبى ، ذواقة للموسيقى والفنون ، وفى قصرى من اللوحات ما يفخر أى متحف فنى بالحصول عليها . فعلى جدرانه تأخذ عينك أشهر الصور ، وفى اركانه تقوم اجمل التماثيل .

وكنت أعزب لم أتزوج ، ومع ذلك لم يعرف عنى ابدا انى تورطت مع أى من النساء ، أو ان امرأة أغرقتنى بحبها . بل كنت على العكس عزوفا عن النساء .

والآن حسبى ما قلت ، فما أظنك بحاجة الى المزيد ، وكل ما أرجوه ، هو ان تكون ايها القارىء متعاطفا معى ، متفهما لموقفى ، عندما تستمع الى قصتى ، وانى لآمل ان لا تصدر ضدى حكما قاسيا يحطمنى ، وانا بعد لا اتحمل المزيد من الألم .

بل انى أرجو أن تجد فى قصتى ما يجعلك تنحى باللوم الأكبر على تلك السيدة المدعوة جلاديس بونسونبى ، قبل أن تنهال على لوما وتقريعا .

نعم .. جلاديس بونسونبى هى التى تستحق ان تلام ، قبل أن يتوجه الى أحد بكلمة تقريع .

* * *

كان ذلك فى شهر ديسمبر الماضى .

فى تلك الليلة ـــ منذ ستة شهور ، استصحبت جلاديس الى بيتها عقب السهرة ، فلو أنها فى حديثها

معى لم تعرض لبعض الناس ولم تطرق سيرتهم ، لما وقعت هذه المأساة التى سأروى دقائقها .

كنا جماعة من المدعوين نتناول العشاء عند آل اشيندس ، فى دارهم الأنيقة التى تشرف على الناحية الجنوبية من حديقة ريجنت بارك .

كان كل حاضر من المدعوين يصحب معه رفيقه ، سواء كانت زوجة او خطيبة ــ وذلك باستثنائى ، اذ حضرت وحدى دون امرأة اتأبط ذراعها ، وكذلك كان شأن جلاديس بونسونبى ، اذ لم يصحبها أحد من الرجال .

فلما آذنت السهرة بالانتهاء ، كان طبيعيا بدافع من الشهامة ان اعرض على جلاديس أن اصحبها فى سيارتى الى مسكنها ، فقبلت شاكرة ، ومضيت بها الى بيتها ، ولكن كان من سوء الحظ حين وصلنا أن دعتنى الى تناول كأس وهى تقول ضاحكة :

ــ كأس .. للطريق .

ولم أشأ أن ابدو جافا غليظ السلوك ، فسألت السائق أن ينتظر حتى أعود اليه .

وجلاديس بونسونبى ــ ان شئت ان تعرف ــ امرأة قصيرة القامة الى حد كبير ، فقامتها لا يمكن أن تتجاوز مترا ونصف ، أن لم تكن دون ذلك . ولا شك ان من يرانى واقفا بجانبها سوف يعتقد أننى واقف فوق مقعد ، لما بين القامتين من فرق جسيم .

وجلاديس أرملة مات زوجها ، وهى دون ريب

تصغرنى ببضعة أعوام ، اذ أعتقد انهـــا بلغت من العمر الثالثة والخمسين . ولا شك عندى فى أنها كانت منذ ثلاثين سنة فتاة باهرة الحسن . اما اليوم فلها وجه مشت فيه التجاعيد ، وقوام عدا اليه الترهل ، ولم يعد فيها من معالم الحسن والجمال الا القليل النادر . واذا ما تأملتها وجدت انفها وفمها وعينيها غائرة فى ثنايا وجهها السمين المكتنز .

وقصارى القول انى صعدت معها الى مسكنها ، ودعتنى الى قاعة الاستقبال ، وصبت لى كأسا ، وحين قدمته الى لاحظت ان يدها ترتعش قليلا ، فقلت فى نفسى ان السيدة متعبة ، فينبغى ان لا أطيل مكثى ، وان أعجل بالانصراف .

ومضينا نتحدث عن السهرة التى امضيناها فى بيت آل اشيندس ، وعن المدعوين الذين شـــاطرونا تلك السهرة ، وأخيرا ـــ حين فرغت من كأسى ـــ نهضت واقفا ازمع الانصراف .

وقالت :

ـــ اجلس يا لونيل .. تناول كأسا آخر .

فقلت :

تتأرجح فى مشيتها ، ويداها مبسوطتان أمامها تمسك بهما الكأس كأنما تخشى أن تفلت من قبضتها .

وخالجتنى بادرة من الضحك وأنا أتأمل مشيتها المترنحة ، ولكننى غالبت نفسى ، وكتمت ما بى من ضحكات .

وسألتنى :

ــ ما الذى يضحكك يا لونيل . . ؟

فقد استدارت وهى تملأ كأسها ، ولمحت ما يسرى فى ثنايا وجهى من سمات الضحك .
واجبت :

ــ لا شىء يا عزيزتى . . لا شىء على الاطلاق .
فقالت :

ــ اذن كف عن الضحك ، وحدثنى برأيك فى لوحتى الجديدة .

واشارت الى لوحة من النسيج معلقة على الجدار بأعلى رف المدفأة . وقد رأيت اللوحة بمجرد أن تخطت قدماى عتبة القاعة ، وكنت طوال الوقت أحاول أن اشيح ببصرى عنها ، وأن لا أجعل عينى تستقران عليها

كانت لوحة بشعة رسمها مصور حقير مغمور يدعى جون رويدين ، هو الآن محل سخط لندن وغضبها .

انها لوحة تمثل جلاديس بونسونبى ، ولكنه خططها بطريقة فنية ماكرة جعلتها أطول من حقيقتها واشد اغراء وجاذبية .

وقلت مجاملا :

ــ صورة رائعة .

فقالت :

ــ يسعدنى انها راقتك لك .

ــ انها رائعة حقــا .

فاستطردت تقول :

ــ اننى اعتقد أن جون رويدن عبقرى .. الا تراه عبقريا يا لونيــل . ؟

فهززت راسى فى شىء من التردد وقلت :

ــ اننا بذلك نجامله اكثر مما ينبغى .

ــ أتعنى انه لم يبلغ بعد مرتبة العبقرية .. ؟

ــ هذا هو ما عنيت .

فاستتلت تقول فى اصرار :

ــ اسمع يا لونيل .. ان كبار الأثرياء يلهثون الآن وراء جون رويدن ، وهو لا يرضى بأجر دون الألف جنيه .. هذا يدهشك طبعا .

فقلت : نعم يدهشنى .

ــ ولكنه الواقع .. والنــاس يتزاحمون عليه ، والسعيد منهم من يظفر بالاتفاق معه .

ــ هذا غريب ، فما كنت احسب ان له مثل هذا الصيت .

ومضت جلاديس تتابع الحديث بقولها :

ـ خذ مثلا المصور سيزان .. اننى اعتقد انه لم يحصل على مثل هذا الأجر ولو مرة واحدة فى حياته .

ـ هذا صحيح .

ـ ومع ذلك تزعم انت ان سيزان كان عبقريا .. ؟

ـ انه .. انه عبقرى فى الواقع ، رغم انه لم يفز بمثل هذا الأجر .

واعتدلت فى جلستها فوق الأريكة وقالت :

ورويدن عبقرى ايضا .. والأجر الضخم الذى يتقاضاه هو البرهان القاطع .

وران الصمت علينا برهة من الوقت ، وهى ترشف البراندى ، وانا فى غضون ذلك لا أملك من متابعة يدها التى تهتز بالكأس ، حتى كاد ان ينسكب على ثوبها قبل أن تتناول منه الرشفات الأولى .

وكانت تعرف اننى اراقبها ، ودون ان تدير راسها الى ناحيتى ، نظرت الى خلسة فى حذر من ركن عينيها ، وقالت :

ـ وددت لو عرفت ما يجول فى خاطرك .. انى لأدفع بنسا من اجل ان اعرف خواطرك .

وهذه العبارة المألوفة : بنس من أجل خواطرك ، والتى يرددها الناس دائما وتذهب مذهب الأمثال ـ هذه العبارة تضايقنى وتثقل على اعصابى ، واشعر لسماعها بألم حقيقى فى صدرى ، ولهذا بدأت اسعل .

وعادت تقول :

ــ هيا يا لونيل .. بنس من اجل افكارك .

وهززت راسى وانا عاجز عن الرد .

واستدارت جلاديس فجأة ، ووضعت كأسها على المنضدة الصغيرة المجاورة للاريكة . وخيل الى ــ وان كنت لا أدرى السبب ــ انها نحت الكأس لكى تتحفز للمعركة .. معركة لا أدرى كنهها .

وران علينا الصمت ، وفى ترقبى للمعركة المتوقعة ، ومضيت انفث من سيجارى حلقات متتابعة سريعة من الدخان ، تنفيسا عن قلقى .

ولكن جلاديس لم تقدم على اية حركة ، وان شعرت ان جوا من الخبث والشرور بدأ يشتمل القاعة ، مما جعلنى أفكر فى ان انهض واقفا ، وان ابادر الى الانصراف .

ودارت المراة بعينيها فيما حولها ، وجعلت تبتسم فى مكر وخبث ، وهى لائذة بالصمت تتأملنى .

* * *

أخيرا قطعت جلاديس حبل الصمت .
قالت :

ــ ليونيل .. انى اريد أن اكشف لك سرا .

ــ حقا .. ؟ ولكنى اريد ان انصرف .

ــ ليس قبل ان افضى اليك بسرى .. ولكن لا تخف يا لونيل .. انى لن اورطك فى شيء .. لقد بدأ عليك الخوف فجأة ، فما الذى يخيفك .. ؟

فقلت :

ــ اننى اكره الأسرار ، ولا اعرف كيف اكتمها . واستطردت دون أن تعبأ باعتراضي :

ــ انك خبير فى الصور ، وسوف يروق لك ان تعرف هذا السر .

لقد عرفت الماكرة كيف تضرب على الوتر الحساس ، وان تثير اهتمامى .

ولاذت بالصمت برهة ، ومضت تثنى أصابعها وتشبكها ، ثم قالت :

ــ ألا تريد ان تعرف يا لونيل السر الذى اريد أن اكشفه لك .. ؟

فقلت :

ــ الواقع اننى تأخرت كثيرا ، وآن لى ان انصرف . فاستطردت :

ــ لعله سر طوى فى الكتمان أكثر من اى سر آخر فى لندن .. انه سر نسائى ، ولا يعرفه فى هذه المدينة الا نحو ثلاثين شخصا .. وهم جميعا من النساء ، وليس فيهم رجل واحد .. باستثنائه هو طبعا :

ــ اعنى جون رويدون .

ولم اشأ ان اشجعها واستحثها على مواصلة الحديث ، ولهذا أثرت أن التزم الصمت .

ومضت جلاديس تتابع الحديث .

قالت :

ـ ولكن عدنى اولا وقبل كل شىء .. عدنى بشرفك ان لا تبوح بهذا السر لمخلوق .

فهتفت :

ـ يا الهى .. ! انى لا اريد ان ..

فانبعثت تقول مقاطعة فى اصرار :

ـ عدنى يا لونيل .. ! عدنى .. !

ولم اجد مفرا من الانصياع ، فقلت فى استسلام :

ـ اعدك يا جلاديس .. اعدك بشرفى ان اكتم هذا السر .

ـ حسنا .. والآن اعرنى سمعك .

* * *

تناولت جلاديس كاسها من فوق المنضدة الصغيرة ، واعتدلت فى جلستها ، واسندت ظهرها الى وسادة الأريكة فى شىء من الاسترخاء ، ثم انشأت تقول :

ـ انك تعرف طبعا أن جون رويدن لا يرسم الا النســاء .

فقلت :

يا لونيل .. الا ترى الجمال الذى أضفاه على صورة الفستان .. ؟

ــ حسنا .. انه ..

وسكت ، فقالت فى نبرة من الالحاح :

ــ قم يا لونيل واقترب من الصورة . تأملها بدقة من فضلك .

ونهضت فى شىء من التردد ، واقتربت من اللوحة ، وجعلت أتأمل الرسم . ولشدة دهشتى فطنت الى ان رسم الفستان ملون بطبقة سميكة من الدهان ، بحيث بدت أعلى قليلا من مستوى اللوحة . وهى فكرة مؤثرة ، وان لم تكن عسيرة او مبتكرة .

وقالت جلاديس :

ــ أرأيت .. ؟ ان الطلاء فى تلوين الفستان سميك جدا ، حتى ليبدو وكأنه بارز مجسم .

فقلت :

ــ نعم .. لقد لاحظت هذا .

واستطردت :

ــ ولكن ثمة شىء آخر يا لونيل .. اعتقد انه ينبغى أن أصف لك ما حدث عندما ذهبت اليه أول مرة ليرسمنى .

وقلت فى نفسى :

ــ ما اسمج هذه المرأة ..! سوف تضجرنى بحديثها السخيف ، فكيف يتسنى لى الافلات منها .

واستطردت جلاديس بونسونبى تقول :

ــ كان هذا منذ عام .. وانى لأتذكر الآن كيف كان الأمر مثيرا وأنا ذاهبة الى استوديو الرسام الكبير .. لقد ارتديت فستانا جديدا رائعا اشتريته خصيصا لهذه المناسبة ، ولبست قبعة صغيرة قرمزية اللون ، ومضيت اليه وتلقانى مستر رويدن عند الباب ، وطبعا كنت مبهورة به .. كانت له لحية صغيرة مدببة ، وعينان زرقاوان مثيرتان ، وكان يرتدى جاكتة من القطيفة السوداء . أما الاستديو فكان واسعا رحبا ، تتناثر فى اركانه ارائك حمراء من القطيفة ، كما كانت المقاعد والستائر كلها من القطيفة ، بل ان السجادة نفسها كانت من القطيفة ، اذ يبدو أنه كان مولعا بالقطيفة واجلسنى رويدن ، وقدم الى شرابا ، ثم طرق الموضوع مباشرة ، فأخبرنى أن طريقته فى الرسم تختلف تماما عن غيره من الرسامين وان الوصول الى الكمال فى رسم جسم المرأة يقتضى أسلوبا معينا ، وانه يرجو ان لا يصدمنى هذا الأسلوب .

فقلت له ردا على كلماته :

ــ ان أسلوبك لن يصدمنى يا مستر رويدن .

فقال :

ــ هذا ما أرجوه .

وابتسم فى رقة ، وكشفت ابتسامته عن اسنان ناصعة البياض ، اسنان تضىء وتتلألأ .

واستمرت جلاديس تروى لى قصتها .. قالت :

ــ ومضى الرسام الشهير فى حديثه معى قائلا :

— افحصي يا مسز بونسونبى أية صورة لامرأة من ريشة اى رسام ولو طبقت شـــهرته الآفاق .. تأملي ثوبها ، وسوف تشـــعرين على الفور أن فيه لمســة صناعية .. سيبدو لك فستانها خاويا أجوف ، حتى لكأنه قطعة من قماش مطروحة فوق قطعة من الخشب فهل تدرين السبب .. ؟

واجبته :

— كلا يا مستر رويدن .

— لأن الرسام نفسه لا يعرف شيئا عما هو كامن تحت هذا الثوب .

وحين وصلت جلاديس بونسونبى من روايتها الى هذه النقطة أمسكت عن متابعة الحديث لترشف بضع جرعات من البراندى ، ثم تطلعت الى وقالت :

— لا تجفل يا لونيل ولا تفزع ، فلا شىء فى هذا يمكن أن يعد من الخطايا .. الزم الهدوء ولا تقاطعنى ، ودعنى اكمل القصة ..

وبعد هذا قال لى مستر رويدن :

— ولهذا أصر دائما على أن ارسم عميلاتى وهن عرايا لا يسترهن شىء من الثيـــاب .

وهتفت به واني اسمعه يقول هذا :

— يا الهى يا مستر رويدن .

فقال :

— اذا كنت تأبين هذا يا ليدى بونسونبى ، فانى لا أبالي بان اتنازل عن شىء من هذا المطلب ، ولكنى أوثر أن تستجيبى الى رغبتى .

ــ الواقع يا مستر رويدن اننى لا ادرى ما أقول .

واسترسل الرسام يقول :

ــ وعندما افرغ من رسمك متجردة من الثياب لامفر لنا من أن ننتظر بضعة اسابيع حتى يجف الدهان ، ثم ترجعين الى بعد ان يجف الطلاء واشرع فى رسم الفستان فوق الجسم العارى .

وهتفت بها وانا استمع الى كلماتها :

ــ هذا الرجل فاسق عربيد دون شك .

ــ كلا يا لونيل .. كلا .. انك مخطىء فى هذا .. مخطىء تماما .. لو انك سمعته وهو يتكلم لأدركت انه مؤمن تماما بما يقول .. انه صادق فى كل كلمة تفوه بهـا .

فعدت أقول :

ــ ها انذا اكرر عليك القول يا جلاديس .. هذا الرجل منحل عربيد .. ؟

ــ لا تكن أبله يا لونيل .. وعلى اية حال دعنى اكمل قصتى ، فان لهـا بقية مثيرة .

واستطردت جلاديس تقول متابعة حديثها :

ــ كان أول شىء صارحت به الرسام رويدن هو ان زوجى (وكان عندئذ على قيد الحياة) لا يمكن أن يوافق على أن أرسم عارية . وأجابنى قائلا :

ــ وما حاجتك الى أن تخبرى زوجك .. ؟ لم تزعجيه بهذ الأمر .. ؟ لا داعى لأن يعرف هذا السر الا المرأة التى ارسمها .

وعندما عدت اعترض واجادل قال لى :

ــ ليس فى هذا التجرد يا ليدى بونسونبى شىء مناف للاخلاق .. ان الفن يعتبر غير اخلاقى اذا مارسه الهواة ، وشأنه فى هذا شأن الطب ، فهل تأبين ان تتجردى من ثيابك أمام الطبيب لكى يفحصك .. ؟

واجبته بأننى أرفض ان اخلع ثيابى امام الطبيب اذا ما زرته بسبب اصابتى بالصداع مثلا .

وما سمعنى اردد هذه العبارة حتى أغرق فى الضحك ولكنه ما انفك يحاورنى محاولا اقناعى ، ولا اكتمك انه كان قوى الحجة ، قديرا على الاقناع فما لبثت ان انقدت الى رأيه بعد قليل .. والآن ها انت ذا يا عزيزى ليونيل قد أصبحت مثلما على سرى .

ونهضت واقفة ، ومشت الى دولاب الخمور لتصب لنفسها كأسا من البراندى .

وقلت متسائلا :

ــ جلاديس .. أهذه القصة حقيقية .. ؟

ــ طبعا حقيقية .. كل كلمة فيها تمثل ما حدث .

ــ اتريدين أن تقولى ان هذا هو أسلوبه فى رسم جميع عميلاته .. ؟

ــ طبعا .. وموضع الغرابة فى الأمر ان الأزواج لم يعرفوا أبدا أن زوجاتهم رسمن متجردات من الثياب . ان ما نراه هو صورة الزوجة وهى محتشمة مرتدية ثيابها كاملة .

فقلت : الحق أن هذا الرجل جسور قوى الأعصاب، فلو أن أحدا من الأزواج عرف سره لكانت الطامة الكبرى .

فقالت : انه عبقرى لا نظير له .

ــ اتراه اقتبس هذه الفكرة من الفنان جويا .. ؟

ــ هراء يا لونيل .. ! هراء .. !

وقلت :

ــ ثمة سؤال يطوف بخاطرى يا جلاديس .. أكنت تعرفين أسلوب رويدن فى الرسم قبل ان تذهبى اليه .. ؟

حين فاجأتها بهذا السؤال كانت تهم بأن ترشف جرعة من البراندى ، ولكنها نحت الكأس عن شفتيها ، واستدارت الى تتأملنى ، وبان عليها شىء من التردد ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة ، وغمغمت :

ــ يا لك من داهية يا لونيل .. ! انك قدير على أن تنفذ الى خبايا الأمور ، فلا أستطيع أن أخفى دونك شيئا .

ــ اذن كنت تعرفين أن تلك هى طريقته فى الرسم؟

ــ طبعا كنت أعرف .. لقد صارحتنى هيرميون جيردلستون بأمره .. لقد رسمها من قبل .

فقلت :

ــ هذا ما خطر لى .

ــ وأية خطيئة فى هذا .. ؟

فقلت :

ــ لا شىء .. لا شىء مطلقا .

وكان الأمر واضحا جليا أمام ناظرى .

هذا الرجل رويدن كان داهية ماكرا ، فاستغل دهاءه فى تشكيل شهرته ، معتمدا على علم النفس والتحليل السيكوليجى .

كان يعرف ان فى هذه المدينة رهطا من نساء ثريات

كسالى ، لا يزايلن الفراش الا ظهرا ، ثم يمضين النهار فى ملل وضجر ، يترقبن فى سآمة هبوط الليل ، فيختلفن الى السهرات ، ويمضين ليلهن فى لعبة البريدج أو الكاناستا .

ومثل هؤلاء السيدات يتلهفن الى شىء مثير .. شىء يذهب عنهن ما يشعرن به من ملل طوال النهار .. شىء شاذ خارج عن المألوف .

فما كان من رويدن الا أن استغل هذه اللهفة الى المثيرات فى نفوس النساء الثريات ، فابتدع هذه الحيلة فى الاصرار على رسمهن عرايا قبل ان يشرع فى رسم الصورة المنشودة التى جئن فى طلبها .

وكان يقول لعميلته أن تبقى الأمر سرا مكتوما لا تفضى به لزوجها ، ولكنه كان يعلم انها ستحدث به احدى الصديقات المخلصات ، وكان هذا هو ما فعلته هيرميون جيردلستون ، فلا شك انها فى احدى سهرات البريدج مالت على صديقتها ليدى جلاديس وقالت لها شيئا بهذا المعنى .

ــ اتعرفين يا عزيزتى جلاديس الشرط الذى يفرضه عليك الرسام رويدن اذا ما طلبت منه أن يرسمك .. ؟ ان له شرطا عجيبا . انه يصر على ان يرسمك عارية قبل ان يرسمك مرتدية ثيابك .. وهو يفعل هذا فى السر ، ويصر على أن تكتمى الأمر عن زوجك .. والحق ان هذا أمر مثير .. مغامرة تبعث النشوة فى الأوصال .. !

وما أن تسمع جلاديس ــ أو الصديقة أيا كانت ــ هذه الكلمات حتى تسارع بدورها الى الرسام رويدن لكى تجرب بنفسها هذه الاثارة .. وبهذا ينتشر اسم

رويدن فى أوساط النساء الثريات المترفات ، وتقبل عليه الدنيا ، ويرتفع أجره الى ألف جنيه ، وهو أجر ضخم لم يظفر به أحد من عباقرة الرسامين فى تلك الأيام « أى منذ عشرين سنة » .

وانتزعتنى جلاديس من هـذه الخواطر التى كانت تتدفق فى رأسى بأن قالت :

ــ لونيل .. أرجوك أن تكتم هـذا الأمر عن كل انسان .. انك وعدت ، فاياك أن تنسى .

فقلت :

ــ لن انسى طبعا .. سيظل هذا السر دائما فى طى الكتمان .

ثم أردفت :

ــ أظن انه آن لى أن انصرف .

فقالت :

ــ لا تكن عجولا يا لونيل .. لقد بدأت استمتع بسهرتى .. ابق على الأقل حتى افرغ من كأسى .

* * *

جلست متململا صابرا ، مكرها على أمرى ، فى حين مضت جلاديس ترشف البراندى على مهل ، جرعة بعد جرعة ، وهى تتأملنى خلسة بنظرات تفيض خبثا ، وخامرنى شعور قوى بأن هذه المرأة تحاول الآن أن تلقى فضيحة أخرى ، فقد كانت النظرة التى فى عينيها تماثل نظرة الحية عندما تهم بأن تنقض على فريستها قبل أن تلتهمها ، وأحسست ان جو الغرفة أصبح ينذر بالخطر .

وعلى حين بغتة قالت جلاديس :
ــ لونيل .. ما هذا الذى بلغنى عنك وعن جانيت دى بيلاجيا .. ؟
جاء سؤالها مباغتا لى الى درجة جعلتنى أجفل .
وقلت :
ــ جلاديس . .ارجوك .. دعك من هذا الموضوع
ــ لونيل .. ! ما الذى دهــاك .. ؟ وجهك تضرج احمرارا .. !
ــ هراء .. ! كلام فارغ .. !
واستطردت :
ــ ترى هل وقع الأعزب التلميذ فى المصيدة أخيرا ؟ هل انطبقت عليه الشبكة .. ؟
وقلت :
ــ جلاديس .. ! ارجوك .. دعينى من هذا الحديث
وهممت بأن انهض ، ولكنها القت بيدها على ركبتى تردنى عن القيام وقالت :
ــ الم تدرك بعد يا لونيل انه لم يعد فى هذه الدنيــا الآن سر يكتم .. ؟ ما من سر الا وتداولته الألسن .
وقلت :
ــ ان جانيت فتــاة رائعة .
ــ ان من العسير يا لونيل أن تصف جانيت بأنها « فتــاة » .
ثم أمسكت عند هذه الكلمة ، ومضت تنظر فى كأس البراندى الذى كانت تمسك به بكلتا يديها .
واسترسلت :
ــ ولكنى أوافقك يا لونيل على ان جانيت فتــاة مدهشة فى كل شىء .. فيما عدا .. فيما عدا ..

وسكتت هنيهة خاطفة ، ثم تابعت الحديث فى كلمات بطيئة متمهلة :

ــ فيما عدا انها تردد فى بعض الأحيان أشياء شاذة الى حد ما .

فتساءلت :

ــ أى نوع من الأشياء الشاذة ؟

ــ مجرد اشياء لا أهمية لها .. عن الناس .. وعنك أنت أيضا .

ــ ما الذى تقوله عنى .. ؟

ــ لا شئ يا لونيل .. انك قد تتضايق ان عرفت .

فعدت أقول فى الحاح واصرار :

ــ ما الذى تقوله عنى .

ــ ان الأمر لا يستحق ان يعاد .. صدقنى .. أمور تافهة لا أهمية لها .. كل ما هنالك انها بدت لى فى ذلك الحين غريبة الى حد ما .

ــ جلاديس .. اذكرى لى ما كانت تقوله عنى .

وفيما كنت اترقب جوابها شعرت بجسمى كله ينضح عرقا .

وقالت :

ــ دعنى اتذكر .. آه .. لا شك انها كانت تمزح عندما قالت هذا ، والا لما جسرت على أن اردد على مسمعك ما قالته .. اعتقد انها قالت انه كان أمرا مضجرا يبعث على الملل .

ــ ما هذا الأمر المضجر الذى يبعث على الملل .. ؟

ــ خروجكما معا للعشاء كل ليلة تقريبا .. قالت انه كان شيئا سخيفا يثير الملل .

فقلت مرددا كلماتها :

ــ اقالت ان خروجنا معا يثير الملل .. ؟

وأفرغت جلاديس فى جوفها الجرعة الأخيرة المتبقية فى كأسها وقالت :

ــ نعم .. كان هذا هو ما ترده دائما .

ثم اعتدلت فى جلستها وقالت :

ــ اذا كنت تريد حقا أن تعرف ما قالته بالضبط ، فاعلم اذن انها قالت ان صحبتك مضجرة مملة الى درجة قاتلة .. وقالت أيضا أن ..

وأمسكت جلاديس عن اكمال عبارتها ، فقلت استحثها :

ــ ما الذى قالته أيضا .. ؟

ــ اسمع يا لونيل .. ليس فى الأمر ما يدعو الى الغضب .. اننى أفضى اليك بهذا حرصا على صالحك .

ــ اذن ارجوك أن تصارحينى على الفور بما قالته

ــ لقد اتفق مساء اليوم أن كنت العب الكاناستا مع جانيت ، فسألتها ان كانت تحب أن تتناول العشاء معى غدا ، فاعتذرت عن ذلك ، وقالت انها مرتبطة بموعد آخــر .

ــ ما الذى قالته بالضبط .. ؟

ــ الواقع انها قالت : « انى سأتعشى غدا مع ذلك السمج الثقيل الظل الذى يثير الملل لونيل لامبسون » .

ــ جانيت قالت هذا .. ؟

ــ نعم قالت هذا يا عزيزى لونيل .. ؟

ــ وهل قالت شيئا آخر .. ؟

ــ حسبك هذا يا عزيزى لونيل ... لا احسب أنه ينبغى أن اذكر لك الباقى .

ــ أرجوك .. أكملى القصة .

وقالت جلاديس :

ــ ما هذا يا لونيل .. ؟ لم تصرخ فى هكذا .. ؟ ومع ذلك سأصارحك بكل شيء ما دمت مصرا .. الواقع اننى لا يمكن أن أعتبر نفسى صديقة مخلصة اذا أنا كتمت دونك ما يردده الناس عنك .. ان عنوان الصداقة الحقة هو أن ..

بيد اني لم أطق صبرا على هذا التفلسف ، فقاطعتها بقولى :

ــ أرجوك يا جلاديس .. استمرى من فضلك .

ــ يا الهى .. ! يجب أن تتيح لى فرصة استعيد فيها الى ذاكرتى ما قالته .

وتريثت برهة مفكرة ، ثم استرسلت تقول :

ــ آه .. الآن تذكرت كلماتها .. لقد قالت بالحرف الواحد ..

واعتدلت جلاديس فى جلستها ، ومضت تحاول أن تقلد لهجة جانيت ونبرات صوتها .

قالت :

ــ ما أشد سماحته .. مع لونيل يستطيع المرء أن يتنبأ بدقة بما سوف يحدث .. من البداية حتى النهاية .. فبالنسبة للعشاء مثلا .. سنذهب ياعزيزتى الى سافوى .. نعم سافوى .. ودائما سافوى .. انه لا يغيره أبدا ، كأنما ليس فى الدنيا مطعم يمكن ان نتناول فيه عشاءنا الا سافوى .. وخلال ساعتين مفروض على أن استمع الى حديثه السخيف عن صوره ولوحاته .. نفس الحديث كل ليلة ..

واستطردت جلاديس فى الحديث ، ماضية فى تقليد صوت جانيت ونبراتها :

ــ وفى عودتنا فى التاكسى يمسك بيدى ، ويسند راسه الى كتفى ، وتتصاعد الى انفى رائحة كريهة من فمه ، هى مزيج من الخمر والتبغ ، ثم يمضى يتحدث عن أيام شبابه حين كان فى العشرين ، وما كان يتمناه فى ذلك الطور فى حياته من مناعم الترف ، ويضيق صدرى بحديثه الممل وانفاسه الكريهة ، فاسأله أن يفتح نافذة السيارة . وعندما نصل الى البيت أحييه وأسارع بالدخول وابادر باغلاق الباب قبل ان يحاول اللحاق بى ، وبذلك اتخلص من سماجته وثقل ظله ..
اوه .. لونيل .. ! ما الذى دهاك .. ؟ انك تترنح..!
هل أنت مريض .. ؟

وفعلا كنت مريضا اترنح .

فمند هذه النقطة من حديث جلاديس دارت راسى ، واحسست اننى موشك أن اغيب عن الوعى ، ثم ما لبثت ان اغمى على ، وعرفت فيما بعد أن جلاديس بادرت تدلك يدى ووجنتى ، ونضحت وجهى بالكلونيا .

وحين أفقت من اغمائى بادرت اغادر البيت راجعا الى دارى ، وارتميت على فراشى ، حتى دون ان اخلع ثيابى ، اذ كنت متعبا منهوك القوى منهار الأعصاب ، وما لبثت ان غرقت فى نوم عميق .

وحين نهضت من نومى فى الصباح كنت لا ازال متداعى الأعصاب ، وظللت راقدا فى الفراش مطبقا عينى ، أحاول أن أستعيد الى ذهنى ما سمعت فى الليلة الفائتة .. نعم .. كنت جالسا فى قاعة الاستقبال فى بيت جلاديس بونسونبى .. وكانت تتحدث الى .. كانت تروى لى ما تقوله عنى صديقتى جانيت .. او تلك التى كنت احسبها صديقتى .. كنا نسهر معا ..

ونخرج معا .. ونرقص معا .. كنا نقضى ليالينا سويا وكنت أحسبها تحبنى .. ولكن ها هى ذى ترمينى بالسماجة .. وثقل الظل .. وتردد ان سهراتى تبعث فى نفسها الضجر والملل .

ولكن أقالت جانيت هذا حقا .. ؟ اتفوهت جانيت حقا بمثل هذه الكلمات .. ؟

واتذكر الآن أن مشاعر الحقد على جانيت بدأت تتأجج فى صدرى ، ولم تمض دقائق حتى طفحت على الكراهية ، وملأت جوانحى ، وسرت فى دمائى واوصالى .

وحاولت أن أطرد هذه البغضاء من نفسى ، ولكنها احتوتنى ، واشتملتنى ، وشلت كل بادرة من بوادر تفكيرى .

أصبح الحقد هو الهى الذى اعبده ، فمضيت اسائل نفسى : كيف انتقم .. ؟

لو أن رجلا غيرى فى مكانى لأقدم على قتل هذه المرأة التى تطعننى ، وتدمر مكانتى عند اصدقائى ، وترمينى بثقل الظل والسماجة ، وأنا الرجل الذى يفخر بسهراته الممتعة .

ولكن القتل بدا فى نظرى عندئذ عقوبة تافهة .

يجب أن ابحث عن طريقة اعذبها بها كما عذبتنى .. طريقة أدمرها بها كما دمرتنى .

* * *

يجب أن اعترف باننى رجل لا يعرف كيف يدبر الخطط أو يحبك المؤامرات . ولكن حين انجابت عنى

ثورة الغضب ، وعاودنى الهدوء ـ صفا منى الفكرة وبدأت تتمثل فى ذهنى اشكال مختلفة من أساليب الانتقام والثأر .

وأخيرا استقر رأيى على وسيلة رائعة للانتقام .

نعم .. الآن استطيع أن ادمرها .

وصفقت طربا ، وكدت ارقص فرحا ، شأن الطفل المحروم اذا جاءته لعبة طريفة .

وتناولت دفتر التليفون ، وبحثت عن رقم معين ، ثم ادرت القرص .

ـ هل مستر رويدن هو الذى يتحدث .. ؟

ـ نعم .. انا مستر رويدن .. من أنت .. ؟

ولم يكن من العسير ان يلبى دعوتى ، اذ كان وهو فنان معروف على معرفة باسمى ، باعتبارى من هواة جمع الصور واللوحات ، فمن حسن حظه ان يوثق صلته برجل مثلى .

وقال :

ـ دعنى افكر يا مستر لامبسون .. نعم .. اننى استطيع أن أفرغ من مشاغلى بعد ساعتين .. أيناسبك هذا الموعد .. ؟

فأجبته بأنه موعد ملائم ، وامليت عليه عنوانى ، ووعد بالحضور .

وقفزت من فراشى فى ابتهاج ، كأننى شاب فى عنفوان الفتوة والشباب ، وأخذت حماما معطرا ، وتناولت أفطارا شهيا ، واقبلت على التهامه فى استمتاع .

وفى الموعد المحدد كان مستر جون رويدن يدخل الى قاعة المكتبة . وصافحته فى حرارة ، ودعوته الى

الجلوس ، وانا اشكره على تجشمه مشقة الحضور ، ثم طفقت أحدثه عن اعجابى بلوحاته وتقديرى لأسلوبه الفنى .

وأخيرا رأيت أن اطرق الموضوع الذى دعوته من أجله لزيارتى .

قلت :

— ان لدى يا مستر رويدن طلبا غريبا أحب أن أعرضه عليك .. طلب شخصى محض .. طلب يمكن ان تعتبره سرا .

— انى رهن اشارتك يا مستر لامبسون .

واستطردت أقول :

— انى أعرف يا مستر رويدن انى استطيع ان اثق بك ، واعرف انك سوف تكتم سرى .

— لك ان تركن الى يا مستر لامبسون .

وتريثت برهة مفكرا فى الكلمات التى استهل بهـا حديثى .

— حسنا .. ان ما اقترحه عليك هو الآتى .. فى هذه المدينة سيدة أحب منك أن ترسم صـورتها ، واتمنى ان احصل على هذه الصورة المرسومة بريشتك ولكن ثمة عقبات فى سبيل تحقيق رغبتى ، منها أننى لأسباب شخصية محضة لا أريد أن تعرف هذه السيدة اننى حصلت على صورتها .

— هلتقصد أن تقول ..

وبادرت أقاطعه حتى لا ادع له فرصة للتنصل :

— تماما .. هذا هو ما أقصده يا مستر رويدن .. وانت كرجل خبير بالدنيـا تستطيع ان تتفهم حقيقة موقفى .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقد ازدهاه الاطراء .

وقلت مستطردا :

ــ يحدث فى بعض الأحيان ان يهيم رجل حبا باحدى النساء ، ومع ذلك لأسباب خاصة لا يريد لها ان تعلم أنه يحبها .

فقال الفنان الشهير مؤمنا :

ــ هذا يُمكن أن يحدث يا مستر لامبسون .

ــ وطبعا يظل هذا الرجل يترقب اللحظة الملائمة التى يستطيع عندها أن يكاشف هذه المرأة بحبه .

ــ تماما يا مستر لامبسون .. تماما .

ــ والآن اعتقد يا مستر رويدن انك تفهمت موقفى جيــدا ، وانك تشاطرنى حذرى .

ــ انى مقدر ما تقول يا مستر لامبسون .

واستطردت :

ــ ترى هل اتفق ان سمعت يا مستر رويدن باسم سيدة تدعى جانيت دى بيلاجيا .. ؟

فقال مرددا :

ــ جانيت دى بيلاجيا .. ؟ دعنى اتذكر .. لا ادرى ولكن يخيل الى أن هذا الاسم طرق سمعى من قبل .

ــ اذن فلقاؤك بها سيكون أمرا عسيرا .. ترى هل تستطيع بطريقة ما أن تدبر هذا اللقاء فى احدى حفلات الكوكتيل .

ــ هذا أمر لن يكون من العسير تدبيره يا مستر لامبسون .

ــ حسنا .. ولهذا اقترح عليك عندما تدبر دعوتها الى حفل كوكتيل تكون انت نفسك مدعو اليه ان تذهب

اليها وتقول لها ما معناه انها الأنموذج الفنى الذى كنت تنشده منذ سنوات .. انها الوجه الذى كنت تبحث عنه ، وان لها عينين معبرتين .. انك طبعا تجيد هذا الحديث الفنى وتحسن التعبير عنه بأسلوب مغر جذاب .. ثم تسألها أن تزورك فى الاستديو لترسم لها صورة ، ولا اشك فى انها ستقبل هذه الدعوة فى اغتباط ثم ترسمها ، وتعرض صورتها فى معرضك ، وبعد انتهاء المعرض تجيئنى بالصورة لأشتريها منك ، ولكن بشرط ان لا تعرف السيدة اننى اشتريت الصورة .

وقلت ضاحكا :

ــ ليس فى هذا شيء من الضرر .. انها مؤامرة صغيرة لا شر فيها .. مؤامرة يحوكها عاشق عجوز لا يريد لمن يحبها ان تعرف أنه متيم بها الا فى الوقت المناسب ، وحسبه الآن ان يناجى صورتها .

وضحك الفنان رويدن يجارينى وقال :

ــ أننى ادرك هذا يا مستر لامبسون .

ــ وسوف انقدك فى هذه الصورة الفين من الجنيهات .

وكان هذا ضعف الأجر الذى اعتاد أن يتقاضاه . واذا كان ثمة فى اعماق نفسه شيء من التردد فان مثل هذا الأجر الضخم كان كفيلا بأن يذهب ما يعروه من احجام .

وقلت :

ــ انى أريدها صورة بالحجم الطبيعى يا مستر رويدن .. صورة مرسومة على قماش ، وان تكون وقفتها مواجهة تماما لمن ينظر اليها .

ــ انه ليسعدنى يا مستر لامبسون أن ارسم صورة

لمثل هذه السيدة الجميلة ، اذ لا شك عندى فى انها لابد ان تكون جميلة ما دامت قد استرعت انظار رجل مثلك .

ــ أنها فى الحق جميلة يا مستر رويدن ، وسوف تتأكد من الأمر بنفسك . ولكنى ارجوك أن تبقى هذا الأمر سرا بينى وبينك .. انى لا اريد لهذا الاتفاق أن يتجاوزنا نحن الاثنين .

ــ كن على يقين من هذا يا مستر لامبسون .

وحين انصرف الرسام رويدن غمرنى شعور طاغ من الارتياح ، وانجاب ما اعترانى من اكتئاب ، فقد بدأت الخطوة الأولى فى طريق الانتقام ، وان كان لابد لى أن انتظر شهرين أو ثلاثة حتى يفرغ الرسام من عمله .

وآثرت أن اغادر البلاد فى خلال فترة الانتظار ، فسافرت الى فرنسا فى نفس اليوم ، واتصلت بجانيت اعتذر لها عن عدم مقابلتها مساء لتناول العشاء .

* * *

بعد اربعة شهور رجعت من رحلتى ، وكان ذلك فى اليوم الثانى من أفتتاح معرض الرسام رويدن .

وما ان ابدلت ثيابى حتى انطلقت من فورى الى المعرض ، ووجدت أن كل شيء قد تم طبقا للخطة الموضوعة ، فيها هى ذى صورة جانيت دى بيلاجيا تتصدر احدى قاعات المعرض ، وقد رسمها الفنان على الوضع الذى كنت ارغبه ، فكانت بالحجم الطبيعى ، وواقفة منتصبة فى مواجهة من يتطلع اليها .

وكانت اللوحة محل اعجاب وتقدير من النقاد

والجمهور ، وقد أخبرنى رويدن أن الكثيرين عرضوا عليه شراءها ، ولكنه أبى عليهم ذلك ، واحتفظ بها من أجلى ، وان كان الواقع أنه احتفظ من أجل الألفى جنيه التى سأنقده اياها ثمنا للصورة ، وهو ثمن لا يمكن أن يحلم بالحصول عليه من سواى .

وما انتهى المعرض حتى حملت الصورة الى بيتى ، فأودعتها احدى الغرف ، وأغلقت الباب على نفسى ، ومضيت أتأمل الصورة وأفحصها .

كانت جانيت فى الصورة واقفة فى مواجهتى ، وقد ارتدت فستانا أسود اللون ، ويدها اليسرى مستندة الى ظهر احد المقاعد ، وثمة نجفة كبيرة من البللور تتدلى من السقف فوق رأسها .

وكانت الصورة جميلة فى الواقع ، فالوضع جذاب ملائم ، والعينان الزرقاوان تشعان ابتسامة متألقة ، وقد جاملها الفنان بأن جعل وجهها وجيدها خاليين من أى اثر للتجاعيد .

واقتربت من الصورة كثيرا حتى كدت التصق بها ، وجعلت افحص رسم الفستان فى اهتمام . وكما توقعت وجدت الطلاء فى خطوطه أكثر سمكا من بقية الرسم ، وأدركت أن جلاديس لم تكن كاذبة حين ذكرت لى ان رويدن اعتاد أن يرسم عميلته عارية لا يسترها شىء ، فاذا جف الطلاء وتماسك ألبسها الفستان ، بان يرسم فستانا فوق جسمها العارى ، وهذا هو السبب فى أن يبدو موضع الفستان أشد سمكا من بقية الرسم ، لأن ريشة الفنان جرت فى هذا الموضع مرتين بدلا من مرة واحدة ، فتكونت من الطلاء طبقتان ، احدهما فوق الأخرى ، فكان هذا هو السبب فى الشكل البارز المجسم الذى يأخذه .

ونقلت الصورة الى الغرفة التى أتخذ منها ورشة أمارس فيها بعض هواياتى من الحرف اليدوية ، وخلعت جاكتتى ، وتهيئت للعمل .

صببت فى اناء كمية من زيت الترابانتينا ، وأضفت اليها بضع نقط من الكحول ، وغمست فى المزيج قطعة قماش من نسيج الصوف والقطن،وعصرتها بين أصبعى حتى انساب منها السائل الفائض ، وفى رفق وحذر ، وفى حركات دائرية ، اخذت أجرى بالخرقة المبللة على قطعة صغيرة لا تزيد على بوصة واحدة من الطلاء الأسود الذى يلون الفستان .

وكنت ارجو وانا اقوم بهذا العمل أن يكون رويدن قد ترك الطبقة السفلى من الطلاء تجف تماما قبل أن يضع فوقها الطبقة الثانية العلوية — والا اختلطت الطبقتان وتداخلتا ، وأخفقت الفكرة التى انشدها .

ومضيت فى عملى ازيل طلاء الفستان ، وانا أدعك هذه البوصة المربعة من الثوب فى حذر وحيطة . وأخيرا، بعد شىء من الجهد ، تحقق ما كنت أرجو .

زال الطلاء الأسود بعد أن حله زيت الترابانتينا وجعله لزجا ، وانكشفت لناظرى الطبقة السفلية التى تصور الجسد العارى لجانيت ، وكان الفنان قد لون جسمها باللون الوردى .

الآن عرفت أنه يمكننى ان ازيل الطلاء الأسود الذى لون به رويدن الفستان ، فلا يبقى بعد ذلك الا جسد جانيت عاريا متجردا ، كأنها خلعت ثوبها ، واذا ما رأى احد هذه اللوحة فسوف يعتقد أن جانيت سمحت للرسام رويدن أن يرسمها عاريه .

وهكذا دابت على هذا العمل يوما بعد يوم ، فى صبر

وتؤدة ، حتى استطعت أخيرا أن أخلع عن جانيت ثوبها، فبدت عارية لا يسترها شيء على الاطلاق .

ووقفت أتأمل جسدها العارى .

كان لها قوام رشيق ، وجسم متناسق المعالم ، وكان صدرها ناهدا بارز يتفجر أنوثة ، ويتدفق اثارة طاغية، وكل شيء فيها كفيل بأن يدير رؤوس أعتى الرجال وأشدهم صلابة .

ولكنى وقفت ازاء هذه الفتنة الكاسحة جامدا متصلبا متحجر القلب ، لا تسرى فى أوصالى قطرة واحدة من حرارة الرجولة .

كان الشيء الوحيد الذى يصطخب فى قلبى هو الحقد .. نار متأججة من الكراهية .. سعير يتلظى فى صدرى ، ويريد أن يجتاح جانيت .. هذه المرأة التى لم تدع مجلسا الا شنعت على ، واتخذتنى هدفا لسانها المقذع .

والآن حانت ساعة الانتقام ياجانيت .

* * *

فى تلك الليلة سهرت حتى منتصف الليل أحرر الدعوات .

اخترت من بين أصحابى ثلاثين شخصا ــ نساء ورجالا ــ لكى أدعوهم الى مائدتى وقضاء السهرة فى بيتى . وحرصت على أن أحرر الدعوات بخطى حتى يعرف كل من يتلقاها أنها دعوة شخصية .

قلت فى خطابى :

« انه ليسعدنى بمناسبة عودتى من الخارج أن أدعوكم الى تناول العشاء معى مساء يوم الجمعة القادم ، فى تمام الساعة الثامنة مساء ، وانى ... الخ » .

كان المدعوون من نخبة القوم من الرجال والنساء ، وكنت حريصا على أن أختارهم من نجوم المجتمع وذوى المكانة المرموقة .

وحرصت أيضا على دعوة جانيت .

كان استهلال خطابى اليها تعبيرا عن شوقى اليها ، وعن أسفى لانقطاعنا عن اللقاء طوال هذه الشهور ، راجيا منها أن تلتمس لى العذر بسبب غيابى فى أوروبا. واننى أرجو أن أراها مساء الجمعة لأشبع شوقى اليها ، وانى ما أقمت هذه المأدبة الا بمثابة تكريم لها » .

كنت أعلم أن أصدقائى جميعا سوف يرحبون بهذه الدعوة ، وسوف يلبونها سعداء ، وتصورت ما يحدث عندما تتلقى احدى السيدات بطاقتى .

سيدق جرس التليفون فى شتى البيوت ، وسترتفع الأصوات تتحدث عنى وعن مأدبتى .

ستقول احداهن للأخرى .

— هل عرفت .. ؟ ليونيل يقيم مأدبة مساء الجمعة ... لقد دعانى لقضاء السهرة فى قصره .. ماذا ..؟ دعاك أنت أيضا ..؟ الحق انه رجل لطيف .. طعامه شهى لذيذ ، وحديثه طلى مثير .. انه رجل لبق حلو الحديث .

نعم ... هذا هو الحديث الذى ستجرى به السنة السيدات عبر أسلاك التليفون عند ما يتلقين دعوتى .

ولكن لا ... لا ...

لن يكون هذا هو الحديث الذى تتداوله السنة المدعوات .

أغلب الظن أن حديثهن سيكون على نحو مخالف تماما ... طبعا .. وذلك بسبب ما كانت تردده جانيت من تشنيعات .

ستقول احداهن للأخرى عبر الأسلاك :

ـــ لقد تلقيت من ليونيل دعوة للعشاء ، وأراني مضطرة لتلبيتها على سبيل المجاملة ، ولكني لا أكتمك يا عزيزتي أنه رجل سمج ثقيل الظل ... انك على حق فيما تقولين ... انه لا يطاق .. نعم .. لقد سمعت ما قالته عنه جانيت ... آه .. تماما ... كانت تقول انه بلغ من السماجة حدا قاتلا .. يالمسكينة جانيت ..! كيف استطاعت ان تطيق صحبته كل هذه الشهور .؟

نعم ... هذا ما سوف تجرى به ألسنة النساء حين يتلقين دعواتي الى سهرة الجمعة .

وجانيت هي أس البلاء ، والسبب في كل هذه التشنيعات .

* * *

في الثامنة من مساء الجمعة كانت قاعة الاستقبال في بيتي تموج بالمدعوين الثلاثين ، لم يتخلف احد منهم . ومضوا يديرون أبصارهم في اللوحات الفنية التي تعلو الجدران ، معجبين بما لدى من تحف رائعة لكبار الرسامين .

وحين جاءت جانيت دي بالاجيا كانت ترتدى نفس الفستان الأسود الذى كانت تلبسه عندما رسمها رويدن ـــ ذلك الفستان الذى محوته من الصورة ، فخلعته عنها حتى بدت عارية لا يسترها شيء على الاطلاق .

وهرعت اليها أحييها في اغتباط ، وأشد على يدها في حرارة ، وان كان في قلبي سعير من الحقد يتلظى .

وجعلت طوال السهرة أنتقل من جماعة الى جماعة ،

واتحدث الى هؤلاء والى أولئك ، مجاملا ، ملقيا أطرف الدعابات وعبارات المزاح .

والحق انها كانت سهرة رائعة ممتعة ، فالأحاديث دائرة دون انقطاع ، والضحكات عالية فى مرح وابتهاج .

وأخيرا دعوت ضيوفى الى قاعة المائدة .

وحين دخلوا القاعة هتفوا يقولون :

ــ يا الهى ..! قاعة الطعام تكاد تكون مظلمة .

ــ انى لا اكاد أرى موقع قدمى .

ــ هذا ابتكار جديد يالونيل ... تطفىء الأنوار الكهربائية ، وتضىء الشموع فقط .

ــ هذا يضفى على القاعة جوا خياليا مثيرا .

كانت هذه العبارات هى التى رددها المدعوون حين توافدوا على قاعة الطعام .

وكانوا على حق فيما يقولون ، فقد كانت القاعة شبه مظلمة ، لا يكاد المرء يتبين فيها موقع قدميه .

ففى هذه القاعة الفسيحة الرحبة لم يكن هناك الا ستة شمعدانات موضوعة فى وسط المائدة ، فلا يكاد ضوؤها يصل الى أطرافها الا شعاعا ضئيلا يختلج ، فى حين كانت بقية أرجاء الغرفة غارقة فى الظلام .

واذا كان بعضهم قد رأى فى هذه العتمة السائدة ما يضفى على القاعة جوا خياليا رومانتيكيا ، فان هذا لم يكن هدفى على الاطلاق ، وانما كان الأمر متفقا مع الخطة التى رسمتها .

وانتظموا جلوسا حول المائدة ، وشرعوا يتناولون الطعام ، وكانت ضحكاتهم لا تزال رنانة ، وأحاديثهم المرحة تتردد صاخبة .

وأخذت الشموع تذوب وتتضاءل رويدا رويدا ، وجعلت أراقبها وهى تنكمش ، منتظرا اللحظة الحاسمة التى أضرب فيها ضربتى ، وأنتقم من جانيت ـ تلك المرأة التى كانت دائما ترمينى بأشد التشنيعات ايلاما بالنسبة الى رجل يعد من نجوم المجتمع .

وفرغوا من تناول العشاء ، وملأوا الكؤوس لكى يشربوا نخبى ـ نخب صاحب الدعوة .

وقبل أن يرفعوا الكؤوس الى شفاههم ، قلت :

ـ لقد أوشكت الشموع أن تنطفىء ويجب الان أن نضىء الأنوار الكهربائية ... مارى ... النور من فضلك .

وران السكون على القاعة عقب كلماتى ، مترقبين أن يضاء النور ، وسمعت وقع أقدام الوصيفة وهى تتجه ناحية الباب لكى تشعل الضوء .

وسمعت تكة الزر الكهربائى والوصيفة تضغطه ، وغرقت القاعة فى موجة شاملة من ضوء باهر بعد تلك العتمة السائدة . وفرك المدعوون عيونهم اذ بهرهم النور الفجائى ، وحملقوا فيما حولهم وهم يرمشون .

* * *

فى تلك اللحظة زايلت مقعدى ، وتسللت فى هدوء ناحية الباب ، وغادرت القاعة ، ووقفت على كثب من المدخل أرقب ما يجرى داخل الغرفة .

ورأيت مشهدا لا يمكن أن ينسى ... مشهدا أثلج قلبى بفرحة طاغية هزتنى من الأعماق .

كانت جانيت ممسكة بالكأس لكى تشرب نخبى مع سائر المدعوين .

وتجمدت يدها بالكأس عند شفتيها ، وحملقت الى الجدار بعينين زائغتين مفغورتين ، ثم ارتعشت يدها ارتعاشا شديدا ، وأفلتت يدها الكأس ، وانسكب البراندى على ثوبها .

لقد رأت عندما أضيء النور صورتها معلقة على الجدار ، عارية متجردة من الثياب .

وكذلك رآها جميع المدعوون .

حملقوا جميعا فى الجسد العارى ... ذلك الجسد الذى استبيحت ـــ بفعلتى ـــ حرمته ، وأصبح نهبا للنظرات .

وظللت منزويا فى البهو الخارجى استمع الى مايدور فى قاعة المـــائدة .

ارتفعت الصيحات من جميع الأفواه ... النساء يصرخن ، والرجال يصيحون ... الأصوات مختلطة لا تكاد تتبين منها الا كلمات متقطعة :

ـــ ما معنى هذا .. ؟ لم فعل ذلك .. ؟ هـــذا فظيع ..! هذا أمر غير لائق .. ! يا للعار .. !

ولكنى لم أحفل بشيء مما قيل .. لقد انتقمت وثارت لنفسى ، وكنت سعيدا بانتقامى .

وكانت أســـعد لحظة عندى حين ســـمعت لورد مالهورن يصرخ بأعلى صوته :

ـــ على بقدح من الماء ... جانيت أغمى عليها .

* * *

تركت المدعـــوين يصرخون ويثرثرون ، وغادرت البيت ، وركبت سيارتى ، وأمرت السائق بأن يمضى

بى الى بيتى الريفى الذى يبعد عن المدينة بنحو مائة ميل .

وقضيت الأيام الثلاثة التالية فى سعادة لم أذق لها مثيلا من قبل .

كنت استمتع بهناء لا حدود له ، وجعلت أغنى فرحا مبتهجا كأننى شاب فى عنفوان شبابه .

لقد ثأرت لنفسى ، وما كان أسعدنى بهذا الثأر .

نعم ... خلال هذه الأيام الثلاثة كنت أسعد رجل فى الوجـــود .

وذلك الى أن جاء اليوم الرابع .

* * *

فى اليـــوم الرابع اتصلت بى جلاديس بونسوبى تليفونيا وأنا فى بيتى الريفى .

وكان فى هذا الاتصال التليفونى ما انتزعنى من بحار السعادة التى اتقلب فيها .

كما كان فى حديثها ما كشف أمامى حقيقة أمرى ، وما جعلنى أغوص فى أعماق نفسى .

لقد أدركت بعد أن تحدثت الى اننى لم أكن بطلا فى مسرحية ، وانما كنت ممثلا تافها لا شأن لى .

سألتنى : ليونيـــل ... أتدرى ما يقول النـــاس عنك بعد تلك الليلة الموعودة .. ؟

وقلت مستفسرا وقد انتفخت أوداجى زهوا وخيلاء :

ـ ما عساهم يقولون يا ترى .. ؟

أجابت فى ايجاز واقتضاب :

ـ يقولون انك وغد سافل .

واستطردت : أصدقاؤك جميعا .. رجالا ونساء

... انقلبوا عليك ... رفعوا السلاح ضدك ... لقد أقسموا جميعــا ان يقاطعوك ، وان يكفوا عن زيارتك ومخاطبتك .. لقد أصبحت ياليونيل منبوذا من الناس جميعا .. عداى .. نعم .. اننى لن انبذك ولن اقاطعك .. سأظل اعتبرك صديقا .. انى أرثى لك أيها العزيز ، فقد أصبحت وحيدا بلا صديق .

وحين انتهى الحديث بينى وبين جلاديس ، رددت السماعة الى موضعها ، ثم انقلبت الى الفراش أبكى وأذرف الدمع الغزير .

لقد أصبحت منبوذا بلا صديق .

* * *

وفى نفس اليوم جاءت الضربة القاصمة التى هدت كيانى ، وأورثتنى ندما أجتاح قلبى ، وكادت أن تنهار له أعصابى .

جاءت الضربة التى جعلتنى مجللا بالعار،وأشعرتنى كم أنا حقير تافه ، وكيف أنحدرت الى هوة من الخسة والدناءة ، سحيقة عميقة لم ينحدر اليها انسان .

لقد حمل الى البريد خطابا من جانيت دى ميلاجيا .

كان احلى خطاب ــ خطته أناملها .

فى هذا الخطاب كتبت الى جانيت تقول انها غفرت لى كل ما فعلت ... قالت انها سامحتنى من كل قلبها ، ولا تضمر لى غضبا على ما أسأت به اليها .

قالت انها تعرف ان سلوكى كان مجرد دعابة منى .. مجرد نكتة اردت بها المزاح .

وفى ختام رسالتها سألتنى ان لا أحفل بما يقوله

الناس عنى ، وما يرددون من مثالب ، وما يرمونني به من صفات فظيعة .

ثم قالت انها باقية على العهد ، وانها مازالت تحبني كما كانت من قبل ، وأن حبها خالد حتى الأبد .

* * *

ما أن فرغت من تلاوة خطاب جانيت حتى اعتورتنى حالة من الأكتئاب شديدة الوطأة .

وهكذا جلست الى مكتبى اسطر هذه الاعترافات ، وانا ارجو أن اجد فى تدوينها بعض السلوى ، ملتمسا فى كلماتى ما ينفس عن صدرى ما يثقل عليه .

ولكن ها انذا لا ازال كما كنت : فريسة ندم قاتل تشتد وطأته ما بين لحظة واخرى .

نعم .. الاعتراف لم يذهب ما بى ، ولم يخفف وطأة الندم والشعور بالذنب .

وفجأة برقت فى ذهنى فكرة ، وعرفت الطريق الذى ينقذنى من هذه الهموم ... طريق النجاة .

فتحت درج مكتبى ، وتناولت مسدسى ، ووضعت يدى على الزناد ، وانا اردد :

ـ هذا هو الطريق ..!

ضربة القدر

كانت اللوحة المعلقة بالباب تحمل هذه الكلمات :
« مطعم المصباح المضىء » .
وكان ثمة فوق اللوحة لافتة أخرى مسطورة عليها هذه العبارة :
« طعام شهى ـــ ادخل وكل » .
لم يكن جائعا ، ولم يكن للمطعم مظهر جذاب يغرى بالدخول ، ومع ذلك دخل .
كان المطعم عبارة عن طاولة واحدة مستطيلة ، تدور حولها عند الجدار عشرة مقاعد أو تزيد ، وقد استوى عليها نفر من الرواد لا يزيدون على خمسة أو ستة اشخاص . وكانوا جلوسا عند اقصى الطاولة، بالقرب من الباب .
ومشى امامهم حتى تجاوزهم ، واتخذ لنفسه مقعدا عند الطرف الآخر من الطاولة .
وتتابعت الدقائق وهو جالس يحملق فى الجرسونات الثلاث ، دون أن تعبأ احداهن لا بالحضور اليه ، وانما حتى بالتطلع الى ناحيته .
وأخيرا اقبلت عليه جرسونة منهن ، وسألته :
ـــ ماذا تطلب يا سيدى . . ؟
وأجابها فى اقتضاب : ـــ كوكا .
وجاءته زجاجة الكوكا ، ووضعتها أمامه .
وتظاهر بأنه يقرأ قائمة الطعام ، ودون أن يرفع عينيه اليها ، سألها فى لهجة عابرة ، كأنما الأمر لا يعنيه فى شىء :

ــ ترى هل مسز هيلين كروس تعمل هنا ..؟
فأجابته : ــ انا هيلين كروس .
ورفع اليها بصره .
لقد استعاد الى ذهنه كل ما ذكره مايك عنها ...
كان يحدثه عنها ليل نهار . . كان يقول :
ــ انها شقراء طويلة القامة ... ولكنها متناسقة القوام . وهى تبدو قريبة الشبه من تلك الشقراء التى تقوم بأدوار التمثيل الصامت فى التليفزيون ... ما اسمها .؟ انى لا اذكره الآن ... ولكنك تعرف طبعا اية ممثلة اقصد ... ولكنها لا تكثر من التجميل ياصديقى ... انها ذات جمال طبيعى غير مصنوع .. أما عن الحب فسلنى ... ان قبلاتها واحضانها تدير الراس وتذهب باللب ... انها فتنة طاغية .
ويمضى مايك بعد ذلك يحدثنى عنها حديثا مستفيضا طويلا ، يصف لى فيه وصفا دقيقا مفصلا كل قبلة من قبلاتها ، وكل ضمة من ضماتها ــ حتى لقد كانت صورتها محفورة فى ذهنى ، و لايمكن أن تنطمس مهما امتدت بها الايام .
ومضى الرجل يقارن ما كان محفورا فى ذهنه بذلك الذى يرى أمامه .
وادهشه أنه لم يكن ثمة وجه للشبه أو حتى للمقارنة، فهذه المرأة لا تشبه من قريب أو بعيد بطلة التمثيل الصامت فى التليفزيون .
أنها حقيقة طويلة القامة مثلها ، ولكن عند هذا ينتهى كل شيء .
فقوامها مترهل ليس فيه شيء من التناسق،وجسمها بدين فى أكثر من موضع ، أما شعرها الذى زعم مايك انه أشقر ، فكان كستنائيا خشنا مجعدا .

وكانت على عينيها نظارة سميكة الزجاج ، تتراءى عيناها من تحته خاملة خالية من البريق .

ولا شك انها لاحظت ان الرجل كان يحملق فيها ، وادرك هو من ناحيته ان عليه أن يعجل بالتحدث اليها .

وقال : ــ اننى أبحث عن هيلين كروس التى كانت تقيم فى منطقة نورتون ، وكانت متزوجة من رجل يدعى مايك .

وحملقت فيه المرأة وقالت :

ــ اننى تلك المرأة التى تبحث عنها ... ولكن ما الذى يدعوك الى البحث عنها ؟

وأجاب : ــ اننى احمل اليها رسالة من زوجها .

ــ من مايك ..؟ ولكنه مات ..!

ــ أعرف هذا ... كنت معه حين مات ... اننى راستى كونور ، واحسب انه حدثك عنى ... لقد امضينا عامين معا ... فى زنزانة واحدة .

لم تتغير سحنتها حين سمعت هذه الكلمات ، بيد أن صوتها انخفض حين تكلمت ، حتى صار أشبه بالهمس :

قالت : ــ وما فحوى هذه الرسالة ..؟

وتطلع الرجل فيما حوله متوجسا ، ثم تساءل :

ــ لا استطيع أن اتحدث هنا ... متى تنصرفين من المطعم ..؟

ــ فى السابعة والنصف .

ــ حسنا سألقاك عند الباب .

وخامرها شىء من التردد ، ثم قالت :

ــ فلنتقابل عند الناصية ... عبر الشارع ... عند الحنفية

وأومأ الرجل برأسه ، ثم نهض واقفا ، وغادر المطعم دون أن يلقى نظرة عليها وهو فى طريقه الى الباب .

* * *

لم يكن هذا هو ما توقعه راستى كونور ، بعد حشا مايك راسه بحديثه المنمق عن زوجته ، فحين اشترى تذكرة السفر الى هانز فيل كانت فى رأسه فكرة أخرى مختلفة تمام الاختلاف .

لقد كان يسعده حقا أن يلتقى بهذه الشقراء الجميلة التى تشبه نجوم التليفزيون ، والتى تتميز بقامة طويلة وقوام متناسق . فلو انها كانت كذلك لاستطاع أن يمزج العمل بالمتعة ، وهى بعد ارملة ما تزال تهفو الى الحب والمغازلات .

ولكن بعد ان رآها ، وبعد أن ادرك أن مايك كان يصف له امرأة اخرى رسمها له خياله ـــ تبددت احلامه، ولم يعد يفكر فى مطارحتها الهوى .

ان هذه المرأة البدينة ، المترهلة الجسد ، ذات العينين الخاملتين والصوت الأجش ـــ هذه المرأة لا يمكن ان تثير فيه ذرة من المشاعر الجياشة ... لو أنه رآها أمامه عارية متجردة من الثياب ، لأشاح عنها بوجهه،دون أن تثير فى أوصاله نبضة من الدماء الحارة.

وراح راستى يسائل نفسه فى عجب كيف استطاع مايك خلال عامين كاملين أن يرســـم لهذه المرأة تلك الصورة الخلابة ، وهل كان مايك يتعمد أن يكذب ، أو كان مغرقا فى الخيال ، فتصورها فعلا على الصورة التى كان يصفها .

وكان التعليل الوحيد ـ فى رأى راستى ـ هو ان مايك كان يرى زوجته فعلا على تلك الصورة الفاتنة الجميلة ، وذلك بسبب قضائه عامين فى الزنزانة ، منعزلا عن النساء ، محروما من متعة الحب،فتجسدت له هيلين كروس حسناء فاتنة ، فكان يضفى عليها هذه الأوصاف الخيالية ، وما يدريه أن مايك قبل موته أصيب بشيء من الخبل ، فأخذته لوثة من الجنون ، فمضى يتخيل ما لا وجود له .

غير أن راستى كان يرجو أن يكون مايك صادقا فى شيء واحد ، هو الذى يعنيه دون أى شيء آخر .

انه الشيء الذى تحدث عنه مايك الى صـــاحبه راستى وهما معا فى الزنزانة وهو الذى جعل راستى يحضر الى هذه القرية ليقابل تلك الزوجة .

نعم ... كان يتمنى أن يكون مايك لا يهذى ولا يخرف حين حدثه عن أنه اخفى خمسين الف دولار فى مكان ما .

وفى الحديقة ، وفى الموعد المضروب التقت به زوجة مايك .

كان الظلام قد نشر ظلاله على الأرض ، وكان فى هذا ما يلائمه ، اذ كان لا يريد ان يراها احد فى صحبته .

ولشدة الظلمة السائدة لم يكن يستطيع ان يرى وجهها، وكذلك لم تكن هى أيضا ترى وجهه ، وكان فى هذا ما يهون عليه أن يقول ما يبغى .

جلسا على أحد المقاعد ، وتناول سيجارة اشعلها ودسها بين شفتيه ، ثم ذكر أنه ينبغى ان يكون ظريفا معها ومجاملا ، فبسط عليها علبة سجائره .

هزت رأسها سلبا وقالت :

ـ شكرا لك ... انى لا ادخن .
ـ حسنا ... مايك أخبرنى انك لا تدخنين .
وتريث برهة ، ثم استطرد يقول :
ـ لقد حدثنى عنك كثيرا يا هيلين .
وقالت : ـ ولقد ذكرك فى خطاباته كثيرا ... قال عنك أنك أعز أصدقائه .

ـ لكم تمنيت ان اظفر بصداقته ... مايك رجل عظيم ... ليس هناك من هو أعظم منه ... انه ما كان يستحق أن يسجن .
فقالت : ـ وهذا هو نفس ما كان يردده عنك فى رسائله ومضى راستى يقول فى نبرة مؤثرة :

ـ كلانا أصابه النحس ... ضربة من سوء الحظ، والا ما كان نصيبنا أن يزج بنا فى السجن .
وسحب نفسا عميقا من سيجارته ، واستطرد يقول :

ـ حين سرحت من الخدمة فى الجيش كنت لا أزال فتى فى عنفوان الشباب . وخرجت الى الدنيا لا املك الا قدرا ضئيلا من المال ، فلما فرغت نقودى عملت سمسارا فى أحد مكاتب المراهنات السرية على الخيل . وكنت أعيش عيشة مستقيمة الى أن كانت تلك الليلة التى هاجم فيها البوليس مكتب المراهنات .
وعاد راستى ينفث دخان سيجارته كثيفا ، ثم استطرد :

ـ فى تلك الليلة ناولنى صاحب المكتب حقيبة ملأى بالنقود ، وطلب منى ان أهرب بها من الباب الخلفى . وما خرجت الى الطريق حتى باغتنى شرطى شاهرا مسدسه ، فما كان منى الا أن ضربته بالحقيبة على

راسه ، فخر صريعا جثة هامدة . . .طبعا لم اكن اقصد ان أقتله ، ولكن هذا هو ما حدث ... مجرد نحس وسوء حظ .

فقالت المرأة : ــ لقد قص على مايك هذه القصة فى احد خطاباته ... انك تعذبت كثيرا يامسكين .

ــ وكذلك تعذب مايك كثيرا يا هيلين .

كان راستى يخاطبها باسمها مجردا ، وفى صوت ناعم رقيق ، لأن ذلك كان جزءا من الخطة التى اعدها .

واسترسل قائلا : ــ الواقع اننى لم استطع أن افهم كيف ارتكب جريمته ــ الا اذا كان النحس قد تحالف ضده ... لقد عرفته رجلا امينا مستقيما ، فما الذى جعله يقتل زميله الصراف ويستولى منه على مرتبات الموظفين ، ثم يخفى الجثة بطريقة فذة ،بحيث لم يعثر عليها رجال البوليس حتى اليوم ... انهم لم يجدوا الجثة للآن ، جثة بيت تايلور ، اليس كذلك..؟

واجابت مسز كونور بأن قالت فى امتعاض :

ــ ارجوك ... دعنى من هذا الحديث ، فانى اكره ان أفكر فيما حدث .

وأخذ راستى يدها بين راحتيه فى رفق وهو يقول:

ــ انى اقدر مشاعرك واتفهمها جيدا .

كانت يدها مكتنزة تنضح عرقا ، وقد استقرت فى راحته كأنها قطعة من اللحم ، ولكنه تحمل ملمسها فى سبيل الخطة التى تدور فى رأسه .

واستطرد : ــ كانت الأدلة ضده مجرد قرائن .

وقالت هيلين : ــ لقد رأى احدهم مايكفى ذلك اليوم وهو يدعو الصراف الى ركوب سيارته ... لقد اضاع الصراف مفاتيح سيارته بعد ظهر ذلك اليوم ، وان

كان لا يدرى كيف فقدها ، فطلب من مايك أن يسمح له بالركوب معه وهو راجع الى المصنع حاملا أجور العمال ... وكانت هذه القرينة كل ما يحتاج اليه البوليس لتقديم مايك الى المحاكمة . وقد بادروا الى اعتقاله قبل أن تتاح له فرصة يمحو فيها بقع الدم من سيارته . وقد شهدت فى صالحه ، وأقسمت أنه أمضى نهاره معى لم يغادر البيت ، ولكن المحكمة أهدرت شهادتى ولم تأخذ بها ، فقضت عليه المحكمة بالسجن عشر سنوات .

فقال راستى : ــ قضى منها عامين فى السجن ثم مات ولكنه لم يكاشفهم ابدا بالطريقة التى أخفى بها جثة الصراف ، كمـــا لم يخبرهم بالمكان الذى اخفى فيه الخمسين الف دولار .

وأومأت الأرملة برأسها ايجابا وقالت :

ــ هذا صحيح ... رغم انهم عذبوه كثيرا ليحملوه على الاعتراف ولكنه تحمل التعذيب صامدا ، وابى أن يتكلم .

وران عليهما الصمت برهة ، كان راستى خلالها ينفث دخان سيجارته بشراهة .

وأخيرا سألها : ــ وهل كاشفك أنت بسره ..؟

وردت راستى فى نبرة تنطوى على الحنق !

ــ وهل كنت ترانى على هذه الحال لو اننى كنت اعرف مكان النقود ..؟ لقد غادرت موطنى فى نورتون ، وحضرت الى هذه البقعة النائية ، فرارا من القيل والقال ، وعملت فى هذا المطعم الحقير الذى لا يؤمه الا حثالة القوم ، فهل هذه حال من لديها خمسون الفا من الدولارات ..؟

وقذف راستى بعقب سيجارته على الأرض ، وسحقه بحذائه ، ثم تطلع اليها من خلال حجب الظلام ، وقال:
ــ ما عساك تفعلين لو انك عثرت على هذا المال يا هيلين ..؟ هل تسلمينه الى الشرطة ..؟
وندت حشرجة من حلقها وقالت .
ــ وما الذى يحملنى على ذلك ..؟ لو اننى فعلت لكنت اشد النساء حمقا ..؟ ! أبعد أن سجنوا مايك وقتلوه أعيد اليهم النقود .. ؟ نعم ... انهم هم الذين قتلوه نتيجة لما ساموه من عذاب ... لقد زعموا انه أصيب بالدرن ، ومايك طوال عمره كان سليم البنية قوى الصدر ... وحتى لو صح قولهم فهم المسؤولون، لأنهم أودعوه زنزانة رطبة أذبلت صحته وقضت عليه.
وقال راستى : ــ لقد قال الطبيب انه مصاب بالانفلونزا ، ثم حملوه فوق المحفة الى المستشفى .
ــ انهم هم السبب فى موته ... لقد دفع حياته ثمنا لهذه النقود ... لقد اشتراها بحياته ، وقد اصبحت من حقى باعتبارى أرملته ، فلم اردها الى الشرطة .. انها الآن ملكى .
فقال راستى : ــ نعم ... انها ملكنا .
وغرزت أظافرها فى راحة يده ، وقالت فى صوت يتهدج انفعالا :
ــ هل كاشفك بسر المخبأ ..؟
ــ انه لم يتكلم كثيرا ... وكان ذلك قبل ان ينقلوه الى المستشفى ... كان فى اشد حالات المرض عندئذ، وكثرة الكلام ترهقه ، ولكن كان فيما سمعت منه الكفاية .. لقد استخدمت ذكائى لأفهم المغزى الذى ينطوى وراء كلماته الغامضة .. وقلت فى نفسى انه لابد أن القاك بعد الافراج عنى ، فنتداول فى الأمر مسا ،

واضم الى معلوماتك ما لدى من معلومات ، حتى نوفق الى العثور على النقود .. لقد أخبرنى أنها خمسون الفا ، فلو أننا اقتسمناها معا لكان نصيب كل منا ثروة كبيرة .

وقالت هيلين فى صوت تخامره نبرة من الشك :

ــ ما الذى يجعلك تقاسمنى النقود اذا كنت تعرف مخبأها .. ؟

واجـــاب :

ــ لأنه كما سبق أن قلت لك لم يتحدث الا بالقليل وكانت كلماته غامضة مبهمة ، فعلينا أن نتعاون معـــا لنعرف المعنى المطلوب ، ثم نتكاتف فى البحث .. اننى غريب عن هذه الناحية ، واذا أنا خرجت أبحث عن المخبأ انتهبتنى الأنظار وأحاطتنى الشكوك ، أما أنت فمن أهل المنطقة ومعروفة هنا ، فاذا تجولت هنا وهناك لم يثر تجوالك شيئا من الريبة .. ارأيت اذن انه لابد أن نتضامن معـــا .. ؟

فقالت :

ــ اتفاق عمل اذن .. ؟

وهز رأســـه وأجاب فى صـــوت حاول أن يبث فيه شيئا من الانفعال :

ــ ليس كله اتفاق عمل يا هيلين .. انك تدركين كيف كانت الحال بى وبمايك ونحن فى الزنزانة معا .. كان طوال الوقت يتحـــرق شوقا اليك ، وكان لا ينى ليلا ونهارا يتحدث عنك . والغريب انه لم يمض وقت طويل حتى بت وكأنى أعرفك كما يعرفك مايك نفسه ، وذلك لفرط ما حدثنى عنك .. لقد تمنيت من اعماق قلبى ان القاك .. طوال أيام سجنى وأنت صـــورة متجسدة أمامى .

وكان راستى حريصا وهو يردد هذه الكلمات على أن يخفض من صوته ، وان يشيع فيه لمسات من الحرارة .. وشعر بها تغرز أظافرها فى راحة يده ، فما كان منه الا أن ضغط يدها ، وجعل صوته يختلج ويتهدج .

وقال :

ــ هيلين .. انى لا ادرى ما عرانى الآن .. ولكننى امضيت عامين فى هذا الجحر القذر بعيدا عن النساء .. عامان بمعزل عن المرأة ، فهل تدرين كم تشق مثل هذه المعاناة على الرجل .

فقالت :

ــ وانا أيضا امضيت عامين بعيدا عن الرجال .. الا ما اشق الحياة وما اشد قسوتها .. !

ونهض راستى واقفا وهو يقول :

ــ لشد ما أتمنى الآن أن أضمك الى صدرى ، واهصرك بين ذراعى .

وأطبق بشفتيه على شفتيها فى قبلة مجنونة شرهة . ثم قال بنفس الصوت المتهدج الهامس :

ــ هيلين .. انك تقيمين وحدك طبعا .

وأجابت :

ــ نعم أقيم وحدى .

ــ اذن هيا بنا .. ما الذى يدعونا الى الانتظار

وتأبط ذراعها ، وسارا معا .

* * *

وكانت ليلة غرام ..

لم يكن يحبها ، بل حتى لم يكن يميل اليها .. بل

الواقع أنه كان يشمئز منها ، ولكنه كان مضطرا أن يطارحها الهوى ، فهذه المغازلات جزء من الخطة الموضوعة .

كانت راقدة الى جانبه ، وقد استغرقها النوم .

واطفأ السيجارة التى اشعلها منذ لحظات قليلة بعد ان جذب منها عدة أنفاس .

وتمنى ان يكون النوم قد ادركها ، اذ كان يريد أن يخلو الى نفسه ليفكر ويتدبر خطته .

كل شيء الآن يسير حسب الخطة الموضوعة ، ويجب أن تمضى الأمور على النحو الذى يريده والا افلتت منه هذه الآلاف المؤلفة .

فى السجن ، حين عرف بقصة مايك ، سعى اليه وتظاهر بصداقته ، حتى يحاول أن ينتزع منه سره .. لقد عرف ان مايك قتل زميله الصراف وهو يحمل أجور العمال ، وأخفى الجثة والنقود المسروقة فى مكان لا يعلمه أحد .

وحاول راستى أن يستدرج مايك الى الحديث ، وان يعرف منه سر المخبأ ، ولكنه تشبث بالصمت ، وأبى أن يتكلم .

وحدث ان نزل به المرض ، وكان الداء شديدا ، فلما أدرك راستى ان صاحبه دخل طور الاحتضار ، راح يضغط عليه ضغطا شديدا ليفضى اليه بسر المخبأ . وتحت وطأة الضغط الذى مارسه راستى ، وتحت وطأة ارهاق الداء ـ تكلم مايك ، ولكنه لم ينطق الا بكلمات قليلة لا تجلى السر تماما ، وانما توحى الى المخبأ باشارات غامضة مبهمة ، لابد من تحليلها وتفسيرها .

وقبل أن يشرع راستى فى ممارسة الضغط من جديد ، جاء الطبيب ورجاله ، وحملوا مايك الى المستشفى ، وفى صباح اليوم التالى قضى نحبه .

وهكذا مات مايك ، وانطوى معه سر المخبأ .

وأمضى راستى ما تبقى من عقوبته ، ثم أفرج عنه .

وآثر راستى على سبيل الحذر والحيطة أن يتريث ستة شهور قبل أن يسعى الى لقاء زوجة زميله .

ان من المحتمل أن يكون بعض زملاء السجن قد عرفوا ان مايك أفضى الى زميله بسر المخبأ ، فليس من المستبعد أن يتعقبوا خطـــواته ، بل ان رجال الشرطة قـــد يفعلون هذا أيضا ـــ ولكن هذه الستة شـــهور التى أمضاها دون أن يبحث عن المخبأ ستقنع المتربصين به أنه لا يعرف شيئا عن النقود .

وهكذا اســـتقل راستى الأوتوبيس الى هانزفيل سعيا وراء لقاء هيلين ، اذ كان مايك قد أخبره بعنوان زوجته .

وحتى الآن تسير الأمور وفقا للخطة المدبرة ـــ فيما عدا شيئا واحـــدا .

طوال مدة السجن كان مايك يحدث زميله عن زوجته وكان يضفى عليها من أوصاف الجمال ما جعل راستى يعتقد انها شبيهة بنجوم السينما ، وكان من أثر هذه الصورة الخيالية ان استقر رأى راستى حين يعثر على النقود أن يتخذ من هيلين صديقة له ، وان يفرا بعيدا عن البلاد .

ولكن هذا الجزء الأخير من الخطة فشل وانهار ، فقد اكتشف ان هيلين ليست من الجمال على شيء ، وانها مجرد امرأة عادية مترهلة البدن ، يتقـــزز المرء أن يقترب منهـــا .

ولكن لابد أن يجاريها ، ولابد أن يطارحها الهوى ، وان يستمر على ذلك ــ الى اللحظة التى يعثر فيها على النقود ، وعندئذ يتخلى عنها ، ويغادر البلاد وحده .

انه فى حاجة اليها الآن ، لأنها هى التى ستهون عليه مهمة البحث .

واستدارت اليه وهى راقدة بجانبه وقالت :

ــ هل أنت صاح يا حبيبى .. ؟

وغوجىء بكلماتها .. ما ابشع هذا الصوت الأجش الكريه ، وما ابشع كلمة : « يا حبيبى » اذا جاءت على لسان مثل هذه المرأة .

وأجاب فى اقتضاب :

ــ نعم .. انى صاح .

ولم يطاوعه لسانه على أن يقول : « يا حبيبتى » .

وسألته :

ــ أتحب أن تتكلم الآن .. ؟

ــ طبعا .. طبعا .. لم لا .. ؟ سأتكلم بكل تأكيد .

ــ لقد خطر لى أن الوقت قد حان لكى نضع خطة البحث .

ــ وهذا ما أحبه فيك .. امرأة عملية .

وأجبر نفسه على أن يرسم على شفتيه ابتسامة مغتصبة .

واستطرد : انك على حق يا طفلتى .. فمن الخير ان نعجل بالعمل .

وجلس فى الفراش واستدار الى ناحيتها وقال :

ــ والآن فلنبدأ من البداية .. أى مما حدثنى به مايك قبل ان يموت .. لقد قال لى أنهم لن يعثروا على النقود أبدا .. طبعا لن يعثروا عليها ، لأنها لا تزال مع بيت .

ومرت لحظة وهيلين كروس صامتة لا تعقب بشيء. ثم قالت :

ـ أهذا كل شيء .. ؟

ـ نعم . هذا هو كل شيء .. ! ما الذى تريدين أكثر من هذا .. ؟ الأمر واضح جلى ، اليس كذلك .. أن النقود مخبأة مع جثة بيت تايلور .

وقالت هيلين :

ـ الأمر واضح كما تقول ، ولكن اين هى جثة بيت تايلور .. ؟ خلال العامين الماضيين ورجال الشرطة يبحثون عن الجثة ، ولكن على غير جدوى .

وندت عن صدرها تنهدة عميقة وقالت :

ـ حسبت ان لديك معلومات ذات شأن .. ظننت انك تعرف شيئا ، ولكن خاب ظنى ، وكان ينبغى أن ادرك هذا منذ البداية .

أمسك راستى بكتفها وقال فى نبرة غامضة :

ـ لا تتكلمى بهذه الطريقة .. هذه المعلومات هى التى سترشدنا الى الطريق القويم ، وكل ما نحن فى حاجة اليه هو أن نحدد المكان الذى نبحث فيـه .. وهذا أمر سهل .

وقالت هيلين فى سخرية لاذعة :

ـ طبعا أمر سهل .. ! سهل جدا .. !

وعاد راستى يقول فى اصرار :

ـ والآن عودى بذاكرتك الى الماضى .. أين كان رجال الشرطة يبحثون .. ؟

وأجابت :

ـ لقد فتشوا قبل كل شيء البيت الذى كنا نقيم .. كنا اذ ذاك نستأجر بيتا ، فنقبوا كل ركن فيه ،

ومزقوا المفروشات ، وبحثوا فى القبو ، ولكنهم باءوا بالفشل ، فلم يعثروا على شىء على الاطلاق .

ـ وهل ثمة مكان آخر بحثوا فيه . ؟

ـ لقد أرسل المأمور رجاله يفتشون الغابات المنتشرة فى منطقة نورتون ، وأمضوا فى هذه المهمة شهرا كاملا ، فتشوا خلاله جميع الأجران والبيوت المهدمة المهجورة ، بل انهم نزحوا مياه البحيرة ، ولكن على غير جدوى . لقد كان بيت تايلور ، وكان له مسكن فى المدينة ، كما كان يملك بيتا آخر يطل على البحيرة ، وقد فتش البوليس البيتين ، ولكن لم يوفقوا الى شىء .

ولاذ راستى بالصمت برهة يقلب فيها الأمر على وجوهه المختلفة ، ثم قال :

ـ كم مضى من الوقت بين ركوب بيت تايلور سيارة زوجك وعودته الى البيت .. ؟

واجابت :

ـ ثلاثة ساعات تقريبا .

ـ اذن فهو لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرا ، اليس كذلك .. ؟ ومعنى ذلك أن الجثة لابد أن تكون مخبأة فى بقعة قريبة من المدينة .

ـ هذا هو ما قدره البوليس ايضا ، وعلى هذا الأساس أجروا أبحاثهم وتنقيبهم .. لقد فتشوا الخنادق ونزحوا مياه المحجر ، ولكن دون فائدة .

وتريث راستى برهة مفكرا ، ثم قال :

ـ والآن فلنبحث الأمر من زاوية أخرى .. بيت تايلور وزوجك مايك كانا صديقين حميمين ، اليس كذلك .. ؟

ـ نعم .. كانا من أعز الأصدقاء ، ولا يكادان يفترقان .

ـ والذى كانا يفعلانه خلال هذه اللقاءات .. ؟ أعنى هل كانا يشربان مثلا .. ؟ أو يلعبان الورق .. ؟

ـ لا اظن ذلك ، فزوجى لم يكن يدمن الخمر أو القمار ..

ـ اذن كيف كانا يقضيان الوقت .. ؟

ـ فى الصيد .. صيد الأسماك أو الطيور .. الم أقل لك أن تايلور كان يملك بيتا يطل على البحيرة .. ؟

ـ أهذا البيت قريب من المدينة .. ؟

ـ انه لا يبعد عنها أكثر من ثلاثة أميال .

وبدت فى صوت هيلين رنة من الضيق من هذا الاستجواب الذى لا طائل تحته ، والذى لا يعدو أن يكون مضيعة للوقت .

وقالت :

ـ اننى اعرف ما يدور فى خاطرك ، ولكن كل هذا عبث لا جدوى من ورائه .. دعنى اخبرك ان رجال البوليس لم يدعوا ركنا الا فتشوه وقلبوه رأسا على عقب .. تصور انهم رفعوا حتى الالواح الأرضية الخشبية ونزعوها من مكانها .

ـ وهل فتشوا مرسى القارب .. ؟

ـ تايلور لم يكن يملك قاربا ، وكان اذا ذهب مع زوجى يصيدان السمك استعارا قاربا من أحد الجيران القريبين .

ثم اردفت :

ـ لا تحسب اننى لم أفكر فى هذا الموضوع .. طيلة العامين الماضيين وانا اقلب جميع الاحتمالات فى رأسى ، ولكن عبثا .. جميع الاحتمالات كانت تنهار وتتداعى وتذهب هباء .

وتناول راستى سيجارة أخرى أشعلها ، وجذب منها عدة أنفاس متتابعة ، ثم قال :

ــ ان خمسين الفا من الدولارات تحتم علينا أن نواصل التفكير حتى نقع على جواب شاف عن سؤالنا التليد . اين خبأ مايك الجثة .. ؟ أى النقود .. فأنها مع الجثة كما قال لى أثناء احتضاره .

وبعد لحظات من الصمت والتفكير قال :

ــ ما الذى حدث يوم مصرع بيت تايلور .. ؟ ربما حدث شىء يسترعى الانتباه ، وغفلت أنت عن أن تحدثينى به .

واجابت :

ــ الواقع أننى لاأعرف ماحدث على وجه اليقين .. فى ذلك اليوم كنت ملازمة البيت ، أما مايك فكان فى اجازة ، ولكنه خرج يتجول فى المدينة على عادته .

ــ قبل مغادرته البيت هل قال شيئا يستلفت النظر .. ؟ هل كان عصبيا مضطربا .. ؟ هل كان يتصرف بطريقة شاذة غير مألوفة .. ؟

وفكرت هيلين برهة ، ثم قالت :

ــ كلا .. لا أظن .. واذا كنت تقصد أنه كانت فى ذهنه خطة مدبرة ، فانى اعتقد أنك مخطىء فى هذه الفكرة .. لقد ارتكب جريمته فى اعتقادى بوحى من اللحظة الحاضرة .. وجد نفسه فى السيارة مع تايلور ومعه أجور العمال ، فخطر له فجأة أن يقتله ، وان يستولى على المال . مجرد خاطر فجائى دون تدبير سابق .

واستطردت هيلين :

ــ هذا هو رأيى ، أما رجال الشرطة فلهم رأى

آخر .. أنهم يعتقدون ان مايك كان يعرف ان هذا هو يوم القبض .. يوم استلام الأجور من البنوك ، فذهب يتسكع عند البنك ، وحين راى تايلور خارجا يحمل الأجــور ، تطوع بأن عرض عليــه ان يمضى به الى المصنع .. هذا هو تصور الشرطة لمــا حدث .

ومضت هيلين تقول مكملة قصتها :

ــ وهم يعتقدون أيضا أن مايك هو الذى سرق مفاتيح سيارة تايلور حتى يحمله على ركوب سيارته . وحين خرج تايلور من البنك مع حارسه لم يستطع أن يدير الســـيارة بسبب ضـــياع المفاتيح . وحين مضى الحارس ليأتى باحدى سيارات التاكسى تقدم مايك الى تايلور كأنما حدث الأمر مصادفة ، وعرض عليه أن يمضى به الى المصنع . وقد شهد منادى السيارة بأنه راى الصراف يستقل سيارة زوجى .. وهذه الشهادة هى القرينة الوحيدة التى قامت ضد زوجى ، وبعد ثلاث ساعات تقريبا رجع زوجى الى البيت .

وسألها راستى :

ــ طبعا رجع الى البيت فى سيارته .. ؟

أومأت برأسها ايجابا فعاد يسألها :

ــ وما الذى قاله لك عند رجوعه .. ؟

ــ لم يكد يقول شيئا ، اذ لم يتسع أمامه الوقت . لقد داهم البوليس البيت بعـــد دقائق من وصوله ، والقوا القبض عليه .

ــ أبهذه السرعة .. ؟ ولكن من الذى وشى به وابلغ عنه .. ؟

ــ عندما تخلف بيت تايلور عن الحضور الى المصنع ومعه أجور العمال ، اتصل المدير بالمصنع فعرف ان

بيت استلم النقود وغادر البنك منذ ثلاث ساعات ، فبادر الى ابلاغ الشرطة ، فقامت بتحريات سريعة واسعة ، وعرفوا ان الصراف ركب مع مايك سيارته ، فجاءوا الى البيت سراعا واعتقلوه .

وسألها :

ــ وهل حاول أن يقاومهم .. ؟

ــ كلا على الاطلاق .. لقد سلم اليهم نفسه دون اعتراض ودون أن يتفوه بكلمة واحدة وذلك بمجرد خروجه من الحمام اذ كان يغتسل :

ــ أكان مجللا بالتراب .. ؟

ــ يداه فقط كانتا ملوثتين بطبقة كثيفة من الغبار . وكان حذاؤه أيضا ملوثا بالوحل . أما مسدسه فلم يعثر له على أثر ، ولكنهم كانوا يعلمون ان لديه مسدسا مرخصا ، وقد أدعى عند الشرطة انه فقــد منه منذ بضعة شهور ، ولكنهم لم يصدقوا هذا الادعاء .

ــ وأنت .. ؟ هل صدقته .. ؟

ــ لا أدرى .. ربما كان صادقا .

ــ أثمة شيء آخر تذكرينه عن ذلك اليوم .. ؟

ــ كانت يده مجروحة ، وكان الجرح يدمى وينزف عند مجيئه ، وقد سألته عما أصاب يــده ، وكان اذ ذاك صاعدا الى الطابق العلوى ، فأجابنى بأن قال شيئا عن الفيران . أما فى المحكمة فأدلى بشيء مختلف قال لهم ان جرحه كان بسبب زجاج نافذة السيارة ، وكان هذا الجرح هو مصدر بقع الدم التى اكتشفت فى سيارته .. وقد وجدوا فعلا أن زجاج احدى النوافذ كان مشروخا . وقام المعمل الكيماوى بتحليل هذه البقع الدموية فوجدها من فصيلة مختلفة عن فصيلة مايك ،

ولكنها كانت مطابقة لفصيلة الدم المسجلة فى ملف بيت تايلوز .

ومن جديد لاذ راستى بالصمت برهة قصيرة ، نفث خلالها عدة أنفاس من سيارته ، ثم قال :

ــ ولكنه لم يذكر لك عند قدومه الى البيت ان زجاج السيارة هو الذى تسبب فى جرح يده .. لقد اخبرك أن فأرا عضه .

ــ كلا .. انه لم يقل ان فأرا عضه ، وانما قال شيئا عن الفيران ، وان كنت لم اتبين كلماته جيدا .
وقد قرر الطبيب الشرعى ان بهذا الجرح قطعا يدل على أن مايك شقه بموسى الحلاقة .. وقد عثروا فعلا على الموسى فوق رف الحمام وبه أثر للدم .

وقل راستى فى كلمات متمهلة ، وهو سارح ببصره مستغرق فى التفكير .

ــ لحظة واحدة يا هيلين .. لقد قال لك شيئا عن الفيران ، ثم صعد الى الطابق العلوى ، واحدث فى يده شقا بالموسى ، اليس كذلك .. ؟ الآن بدأت الأمور تتضح ، واخذت الحلقات تتماسك .. هل ادركت ما أعنى .. ؟ الواقع ان هناك فأرا عضه ، ولعل ذلك قد حدث وهو يتخلص من الجثة ، فشق الجرح بالموسى ليطرد الدم الملوث من اثر عضة الفأر .. فعلينا اذن أن نبحث عن الجثة فى مكان به فيران .

فقالت هيلين كروس فى شىء من التردد :

ــ ربما كنت على حق فيما تقول ، ولكننا مع ذلك لم نتقدم خطوة واحدة ، اذ ليس معقولا أن نفتش كل مكان به فيران فى منطقة نورتون .

وأجابها راستى :

ـ هذا أمر غير معقول طبعا ، كما أن تنفيـــذه مستحيل ، ولكن علينا أن نحدد مواضع معينة محتملة ، ثم نقوم بتفتيشها .

وتساءلت هيلين :

ـ وكيف يتسنى لنا أن نحدد هذه المواضع .. ؟

ولاذ مايك بالصمت لا يرد على تساؤلها ، بيد أنه ما لبث أن تكلم بعد لحظات .

قال :

ـ سبق أن قلت لى أن مايك وبيت تايلور عندما كانا يذهبان لصيد السمك كانا يستعيران قاربا من احد الجيران ، ففى أى مكان يحتفظ الجيران بقاربهم!..

ـ ان لديهم بيتا للقوارب على شاطىء البحيرة .

ـ هل فتش البوليس بيت القوارب هذا ؟..

ـ لا أعرف ، وان كان مفروضا أنهم فتشوه .

ـ كما أن من المحتمل انهم لم يفتشوه .

ثم استطرد يسألها :

ـ وهل كان هؤلاء الجيران موجودين يوم اعتقال زوجك ؟..

ـ كلا .. فقبل اعتقال زوجى بأسبوعين أصيب أصحاب القارب فى حادث تصادم ولقوا حتفهم .

ـ اذن كان المكان خاليا من الناس ؟.. أكان زوجك يعلم هذا ؟..

ـ طبعا كان يعرف أن لا أحد فى المنزل أو فى بيت القوارب . كما كان شاطىء البحيرة مهجورا لأن البرد كان شديدا .

وسألها راستى :

ـ ومن الذى يقيم الآن فى بيت الجيران ؟..

ـ لا أحد .. انه مازال خاليا منذ لقوا مصرعهم .

ــ أغلب الظن أن الخمسين الف دولار مخبوءة فى بيت القوارب .. متى نستطيع أن نذهب اليه ؟..

ــ غدا اذا شئت .. انه يوم عطلتى .. ويمكننا أن نذهب فى سيارتى .

ثم هتفت فى ابتهاج .

ــ آه يا حبيبى !.. كم أنا سعيدة !..

والتفت بذراعيها حوله تقبله وتضمه الى صدرها ، وتحمل المسكين صابرا ، وهو يتمنى لو انه خنقها .

وران عليهما الصمت برهة طويلة ، وفجأة سألته :

ــ فيم تفكر أيها الحبيب ؟..

فأجاب :

ــ فى النقود طبعا .. خمسة وعشرون ألف دولار صفقة رائعة .

ــ وهل من الضرورى يا حبيبى أن نقتسم المبلغ معا ؟.. لم لا نبقيه مبلغا موحدا ؟.. خمسون الفا قطعة واحدة ما دمنا سنعيش معا .

وكان هذا ما ينويه راستى فى قرارة نفسه .

سيبقى المبلغ قطعة واحدة .. خمسون ألفا ، ولكنه لا ينوى أبدا أن يعيش معها .

سيزيحها من الطريق ، ويستمتع وحده بالخمسين ألفا .

* * *

اذا كان شيء من التردد أو الاحجام قد خامر راستى فيما يتصل بالتخلص من هيلين وازاحتها من الطريق ، فان هذا التردد ما لبث أن تبدد ، اذ استقر رأيه فى صباح اليوم التالى على انه لابد أن يتخلص من هيلين ،

وذلك بعد أن أمضى ليلته فى أحضان جسمها البـــدين المترهل ، وبعد أن اختلطت أنفاسه بأنفاسها الكريهة طوال الليل .

وحين ذبلت أنوار النهار ، وبدأت عتمة المســـاء تشــــتمل الأرض استقل الاثنان السيارة ، وانطلقا ينشدان البحيرة ، فبلغاها وقد هبط الظلام .

وتناولت هيلين مشعلا كهربائيا من صندوق السيارة وهى تقول :

ــ أعتقد انك تريد أن تذهب مبـــاشرة الى بيت القوارب .. ؟ انه من هذا الطريق ، ثم ننعطف الى اليسار ... وكن على حذر فان الأرض مرصـــوفة بالحصباء ، وفيها مطبات كثيرة .

وكانت هيلين على حـــق ، اذ كان الطريق ينـــذر بالخطر فى هذه الظلمة السائدة .

وسار راستى فى أعقابها ، وهو يسائل نفسه عما اذا كانت ساعة الخلاص قد حانت ؟..

انه يستطيع أن يتناول حجرا يهشم به رأسها ، ثم يقذف بها الى البحيرة ، فتطوى مياهها جثتهـــا البغيضة .

ولكن لا .. ان عليه أن ينتظر ويتريث .

يجب أولا أن يعرف ان كانت النقود مخبأة فى بيت القوارب أم لا .

ويجب ثانية أن يكتشف مكانا ملائما لاخفاء جثتها .

كان بيت القوارب مشيدا على طرف لسان داخـــل فى مياه البحيرة ، وكان بابه موصدا بقفل يتدلى من سقاطة قديمة علاها الصدأ .

وتناول راستى حجرا صــــلدا ، وانهال به على القفل ، فما لبث بعد عدة ضربات أن تهشم وتداعى .

وأخذ راستى البطارية من هيلين ، وفتح الباب ، ودار بشعاع الضوء فى أرجاء المكان ، يبدد الظلمة السائدة .

وعلى هذا الخيط من الشعاع شاهد راستى عشرات من العوين الحمراء تبرق تحت وهج الضوء . كان المكان يعج بالفيران .

وقال :

ــ انها الفيران .. تعالى ولا تخافى .. يبدو أننا كنا على صواب فى استنتاجنا .. لقد بدأت أعتقد أن النقود مخبأة فى بيت القوارب .

ومشت هيلين وراءه ، ولم تكن تخالطها ذرة من الخوف ، أما هو فكان خائفا الى حد ما ، اذ كان يكره الفيران منذ صغره . وقد سره أن فرت الفيران هاربة وانزوت فى جحورها حين اكتسحها اشعاع البطارية .

وسلط راستى ضوء المشعل على أرضية بيت القوارب .

كانت الأرضية مصنوعة من الأسمنت ، ولكن معاول رجال الشرطة كانت قد تركت فيها بصماتها ، اذ تناثرت فيها الحفر وضربات المعاول .

وقالت هيلين :

ــ الم أقل لك ؟.. انهم لم يدعوا مكانا الا فتشوه .

ودار راستى بضوء المشعل فى أرجاء المكان .. لم يكن فى البيت قارب ، وكانت الغرفة تكاد أن تكون خالية .

ورفع الضوء الى السقف الذى كان مبطنا بحلبقة عازلة من القطران .

وقالت هيلين وفى صوتها نبرة من اليأس .

— لا فائدة !.. ان اكتشاف المخبأ ليس بالأمر الهـين .

وقال لها راستى فى تفاعل :

— ما يدرينا أنه خبأ النقود فى البيت نفسه ، وليس فى بيت القوارب ؟..

فعقبت :

— كل شىء جائز .

واستدار خارجا من المكان ، وهيلين تسير فى أعقابه .

وحين صار فى الخارج سلط الضوء على السطح ، وظل برهة طويلة يركز الأشعة على هذا الموضع .

وسألها :

— ترى هل لاحظت شيئا ؟..

فقالت :

— أى شىء ؟.. هل لفت شىء نظرك ؟..

— نعم .. السطح .. انه أعلى قليلا من السقف .

— وأى شىء فى هذا ؟..

— هذا معناه أن ثمة فراغا بين السقف وارضية السطح .

— انك على حق فى هذا ، ولكن ..

بيد انه قاطعها قائلا :

— اسكتى .. انصتى .

وسكت الاثنان ، وأخذا ينصتان ويرهفان السمع .

وفى غمرة السكون الشامل استطاع الاثنان أن يسمعا الحفيف الواهن .. فى البداية خيل اليهما أن ما يسمعان هو صوت المطر .. نقرات خفيفة على خشب السطح .

ولكنه لم يكن مطرا .. ولم يكن صادرا من سطح القوارب .

انه كان آتيا من تحت السطح .. من داخل الفراغ الواقع بين السقف والسطح .. انها قوائم الفيران وهى تجرى وتهرول داخل هذا الفراغ .

وهل هى الفيران وحدها ، أم ثمة شىء آخر معها ؟.

هل معها جثة بيت تايلور ، والى جانبه الصندوق المعدنى الزاخر بالنقود ؟..

* * *

غمغم راستى فى صوت تهدجت نبراته :

ــ هيا بنا .

فتساءلت هيلين :

ــ الى اين ؟..

ــ الى منزل تايلور .. انى فى حاجة الى سلم .

ــ وما حاجتك به ؟..

ــ أريد أن أستكشف ما يحتوى عليه هذا الفراغ .

وكان الأمر سهلا ميسرا ، فقد عثر على سلم فى الحديقة .

حمل السلم ، ورجع الى بيت القوارب ، وأسنده الى الجدار ، بحيث استقر طرفه العلوى عند الجزء العلوى من السطح . وكان قد جاء معه من الحديقة بعتلة من الحديد ، عهد بها الى هيلين لتحملها ، اذ حسبه أن يحمل السلم وحده .

وأخذ يرتقى السلم صاعدا الى السطح ، والعتلة فى يده ، حتى اذا انتهى اليه ، استطاع بعد شىء من المشقة أن يدفع طرف العتلة تحت لوح خشبى متآكل ،

ومضى يضغط بكل قوته ، حتى انزاح اللوح من مكانه، وانكشف عن فجوة صغيرة تطل على الفراغ الذى بين السقف والسطح .

ومضى بنفس الطريقة يرفع لوحا بعد آخر ، حتى اتسعت الفجوة ، ثم تناول البطارية وسلط ضوءها الى داخل الفراغ ، وحدق بنظره فى امعان ، محاولا أن يتبين ما هناك .

ولم يكن به من حاجة الى أن يحدق طويلا .

لقد تراءى له على شعاع المشعل صندوق معدنى إسود اللون ، ومن ورائه كان ذلك الشيء الرهيب ــ جثة بيت تايلور .

ولكنها فى الواقع لم تكن جثة بالمعنى المعروف . كانت مجرد هيكل عظمى .

لقد قامت الفـــــيران بمهمتها خير قيام : التهمت البدلة ، وجلد الحذاء ، ثم استدارت الى لحم الجثة تنهشه ، حتى العظام ، ثم استدارت الى العظام تأكل منها ما كان هشا لينا ، كالمفاصل والغضاريف ، فلم يعد باقيا من الرجل الا كومة من عظام . والى جانبه ذلك الصندوق المعدنى الذى تجشم فى سبيله الأهوال . وأشد هول لاقاه هو أحضان تلك المرأة البدينـــة البشعة .

وأدخل راستى العتلة الى الفراغ من خلال الفجوة التى أحدثها ، ودس طرفها وراء الصندوق ، وأخـــذ يسحبه الى ناحيته رويدا رويدا ، حتى صــــــار فى متناول يده .

وفتـــح الصــــــندوق ، وتبدت لعينيه رزم أوراق البنكنوت مكدسة بعضها فوق بعض .

كانت الرائحة التى تملا خياشيمه هى رائحة الرطوبة العطنة والعفن المقبض للانفاس ..
ولكن هذه الرائحة الكريهة التى تتقزز لها النفوس وتتحاشاها الأنوف قد بدت عنده أجمل رائحة استنشقها فى حياته .. انها فى رأيه شذى عطرى رائع ..
لقد شم فيها شتى الأنواع من العطور الخلابة .. عطر سيارة فارهة من أحدث طراز ، وعطر يخت ماخر يمخر البحار ، وعطر حسان جميلات يترامين عليه ويغمرنه بالقبلات .
كان يتأمل أكداس البنكنوت وهو يحلم ويتخيل .
ومن أسفل السلم ارتفع الصوت البغيض :
ـ هل عثرت على شيء ؟..
واجاب :
ـ نعم .. عثرت على الكنز المنشود .. هيا اسندى السلم ، أنا نازل .
نعم .. انه سينزل الآن ، وهذا معناه انه سيضع نهاية لعلاقته بهذه المرأة الكريهة ..
انه نازل ، أى أن الوقت قد حان لكى يعمل .
وناولها العتلة والبطارية ، واطبق بيديه على الصندوق ، واخذ ينزل على مهل وفى حذر ، خشية أن تتعثر قدمه ، فيهوى من حالق .
واخيرا انتهى الى الافريز المرصوف بالحجارة ، والذى يدور ببيت القوارب .
وهم بأن يضع الصندوق على الأرض ، وهو يردد فى نفسه أن ساعة العمل قد حانت .
وما أيسر الأمر واهونه ... كل ما عليه ه وأنيتناول هجرا وينهال به على راس هذه المراة البشعة فيهشمه ،

وينتهى كل شيء ، ثم يقذف بجثتها الى أعماق البحيرة ، بعد أن يشد اليه حجرا ثقيلا ، حتى لا يطفو على سطح الماء .

لقد دبر خطته باحكام .. انها خطة محبوكة ، لا ثغرة فيهـا .

ولكنه كان واهما ... كانت فى خطته ثغرة واحدة ، وهذه الثغرة هى أنه ناولها العتلة .

* * *

ما انحنى راستى الى الأرض لكى يضع الصندوق ، حتى ارتفعت العتلة الى أعلى وهى فى يد هيلين ، ثم هبطت ، واستقرت فوق رأسه .

وجحظت عيناه تحملقان فى المرأة من خـلال حجب لظلام ، ثم ترنح ، وهوى الى الأرض .

ويبدو أنه أغمى عليه عشر دقائق أو خمسة عشر دقيقة ، فانه حين أفاق ألقى نفسه مشدود الوثاق بحبل متين جاءت به من سيارتها فيما يبدو ، وعرف انهـا نقلته الى داخل بيت القوارب .

وكانت المرأة خبيرة عرفت كيف تقيده فى احكام ، فقد شدت الحبل فى قوة حول رسغيه ، وحول قدميه .. لمـا أحس بخيط من الدماء ينساب من رأسه بسبب الضربة التى تلقاها من العتلة .

وهم بأن يفتح فمه لكى يتكلم حين استفاق ، ولكنه وجد نفسه مكمما عاجزا عن النطق .

لم يكن فى وسعه الا أن يظل طريحا على أرضية بيت القوارب ، عاجزا عن الحركة ، وعاجزا عن الكلام ، وهو يراها تهم بأن تتناول الصندوق المعدنى .

فتحت هيلين الصندوق ، وسمعها تطلق ضحكة فرحة ، وعلى ضوء البطارية رأى وجهها يتألق بشرا .
حاول راستى أن يتكلم ، ولكن كل ما استطاع أن يتفوه به كان مجرد حشرجة مختنقة وأنات متوجعة .
وتكلمت هيلين ... قالت :

ــ أتدرى لماذا أردت ان اتخلص منك .. ؟ لنفس السبب الذى جعلك تفكر فى التخلص منى .. دعك من المراوغة ولا تحاول ان تنكر .. انك كنت تنوى أن تقتلنى لتظفر بالخمسين الفا وحدك ، بلا شريك ، أليس كذلك .. ؟

ومالت فوقه حتى يرى الابتسامة المريضة التى اشتملت وجهها .
وقالت :

ــ أتدرى كيف عرفت سرك .. ؟ أتدرى كيف اكتشفت انك تكرهنى .. ؟ حين كنت تضمنى الى صدرك كنت أشعر أن جسدك يرتعد متقززا ، وحين كنت تقبلنى أحسست أن قبلتك زائفة كاذبة ... ان قلب المرأة لا يمكن ان يخطىء .

وحاول راستى مرة أخرى أن يتكلم ، ولكن كان كل ما أنبعث من حلقه مجرد حشرجة .
وانحنت وتناولت الصندوق ، ثم استدارت لكى تنصرف .

وضم راستى صدره الى كبتيه وثنى جسمه ، وزحف على الأرض خطوة الى الأمام ، ثم جمع كل قوته ، وركلها بمجمع قدميه المقيدتين .
كانت الركلة فى منتهى القوة ، وقد استقرت قدماه على باطن ركبتيها ، فانثنى جسمها ، وسقطت على

وجهها ، كأنها غرارة مشحونة بالفلال ، على أنها ما لبثت أن نهضت واقفة .

وتدحرج راستى على الأرض بسرعة خارقة ، وركلها مرة أخرى فى بطنها بكل قوته ، وندت عن صدرها صرخة توجع وألم ، ثم ترنحت وتهاوت الى الأرض .

وفى سقوطها وقعت على الباب ، فدفعته بثقلها ، وانقفل ، وكان جسدها ـ كغرارة تبن ـ منطرحا على الباب يحول دون أن ينفتح .

وزحف راستى مرة أخرى ، وبقدميه راح يضرب ويضرب ... مضى يضربها فى وجهها فى جنون ... مرة بعد مرة ... دون هوادة أو رحمة ، وهى تصرخ ، وتتوجع ، وتتأوه ، وهو دائب على ضربها بقدميه ، دون أن يتوقف ، شاعرا بالدماء الساخنة تنساب على ساقيه وقدميه من جروحها ، ومن أنفها ومن فمها .

وبعد فترة من الوقت ، وبعد سيل من الركلات ، كفت هيلين عن التأوهات ، وكف راستى عن الضربات .

وزحف راستى الى جانبها ، وحاول أن يدفعها بعيدا عن الباب الذى كان جسدها يغلقه كأنه عارضة حديدية .

حاول أن يدفع الجسد .. بكل قوته ... بعيدا عن الباب .

بيد أنه فشل واخفق ... كان جسدها البدين شبيه بدبابة تسد الباب .

وحاول مرة أخرى من جديد ، ولكن جسمها لم يتزحزح بوصة واحدة .

وأخذ يحاول المرة بعد المرة ... ولكن على غير جدوى .

وحاول أن يفك قيود يديه ، فاستحال عليه الأمر ،

وكان كل ماجناه أن تقرح رسغه ، وغاصت الحبل فى لحمه ، فأدمته ، وانساب منها الدم .

وتتابعت الساعات ، وهو يحاول ، ويحاول .

وعلى ضوء المشعل كان يرى دماءه ودماءها تغطى الأرض .

وفرغت بطارية المشعل ، وتضاءل نورها ، ثم خمد الضوء ، وساد الظلام .

* * *

وفى غمرة الظلام ، جاءت الفيران .

اجتذبتها رائحة الدم ، فأقبلت تلعقه وتولغ فيه .

وحين أتت على الدماء ولعقتها ، استدارت الى الجسد تنهشه بأنيابها الحادة ، غير مبالية بالصرخات الداوية .

وبعد شهور أو أيام ، حين يدخل الناس الى بيت القوارب ، سوف يجدون أكواما من العظام نهشت الفيران اللحم الذى كان يكسوها .

ـ هنا ناحية اليمين .. فى مكان ما .. جزيرة كبيرة والحق انها لغز غامض .

ورد رينفورد على كلمات هويتنى قائلا :

ـ وأى نوع هى من الجزر .. ؟

وقال هويتنى :

ـ ان الخرائط القديمة تطلق عليها اسم : « مصيدة السفن » . وهو كما ترى اسم واضح المعنى ، والبحارة يخشون هذا المكان ، ويحاولون دائما أن يتحاشوه ويبتعدوا عنه ، وان كنت لا أدرى لذلك سببا ... ولعل الأمر مرجعه الى اشاعة خرافية تسود الأذهان .

وحدق رينفورد بجماع عينيه ، محاولا أن يخترق ببصره ظلمات تلك الليلة الاستوائية الداكنة التى تحتوى اليخت المنساب فوق المياه الدافئة بغلالة لا تنفذ فيها العين .

وقال رينفورد :

ـ انى لا أستطيع أن اتبينها .

وقال هويتنى وهو يطلق ضحكة خفيفة :

ـ ان لك بصرا حديدا ، فقد عرفتك ترى الفأر فى الغابة ونحن منه على مسافة مائة متر ، فأنا الآن فى عجب حين أراك عاجزا عن رؤية الجزيرة ونحن منها على قيد أربعة أميال .

وأغرق رينفورد فى الضحك بدوره وهو يقول :

ـ ولن واستطع أن أراها ولو كانت على أربعة أمتار ، فظلمات البحر الكاريبى دامسة شديدة ... ان الضباب يتراءى لى كأنه أستار من القطيفة السوداء.

وقال رينفورد يعده فى نبرة صادقة :
ـ سيكون الضباب فى ريو أخف وطأة بكثير ... وسوف نصل الى هذه المنطقة خلال أيام قلائل . وأرجو ان يكون بوردى قد أتم توريد البنادق ، حتى يتسنى لنا أن نمارس فى الأمازون رحلة صيد رائعة .
ثم أردف وهو يلوح بيده فى الهواء !
ـ الحق أن الصيد أمتع رياضة مارستها .
وقال ريتفورد مؤمنا بنفس الحماس .
ـ انه اعظم رياضة فى العالم .
واستطرد هويتنى يقول :
ـ أعظم رياضة عند الصياد ، ولكن ليس بالنسبة الى النمور .
وهز رينفورد كتفيه ساخرا وقال :
ـ دعك من هذا الهراء ياهويتنى ... انك من أعظم الصيادين فى العالم ، فلا تحاول أن تجعل من نفسك فيلسوفا ...
ثم أردف فى نبرة ساخرة وهو يضحك !
ـ من الذى يهمه ما تفكر فيه النمور .. ! ان احدا لا يعنيه أن تعتقد النمور أن الصيد متعة رائعة أم رياضة سخيفة تافهة .
وجارى هويتنى صاحبه فى ضحكاته وقال :
ـ النمور يعنيها ما تفكر فيه النمور وما تشعر به.
ـ وهل تعقل النمور وتفكر .. ؟ ان الحيوان لا عقل له ولا قدرة على التفكير والفهم .
ـ ورغم ذلك فانها تستطيع أن تفهم شيئا واحدا ، هو : الخوف .... الخوف من الموت ، والخوف من الألم .

وعاد ريتفورد يغرق فى الضحك وهو يقول :
— هراء ... يبدو أن حرارة الجو الانت من طباعك وجعلتك لين القلب شاعرى الأحاسيس ...
اسمع ياهويتنى ... كن واقعيا ، واطرح عنك هذه الخزعبلات ... ان هذه الدنيـــا مشكلة من طائفتين ! الصياد ، والطريدة ... ومن حسن الحظ اننا — أنت وأنا — من فئة الصيادين لا الطرائد .
ثم أردف يتساءل فى اهتمام !
— أترانا تجاوزنا الآن هذه الجزيرة التى يسميها القدماء : « مصيدة السفن » .. ؟
— لا أدرى ، فالظلام دامس لا أتبين فيه شيئا . ولكنى أتمنى أن نكون قد بعدنا عنها .
وتساءل رينفورد :
— وما السبب ؟ ..
— ان لهذه المنطقة سمعة مخيفة .
فتساءل رينفورد : أتعنى اكلة لحوم البشر .. ؟
— كلا ، فأكلة لحوم البشر أنفسهم لا يجسرون على الاقامة فى هـــذه المنطقة المهجورة ... ان البحارة يرتعدون خوفا عند الاقتراب منها .. الم تلاحظ ان البحارة بدوا اليوم مضطربين متوترى الأعصاب .. ؟
— الواقع اننى لاحظت أن فى تصرفاتهم شيئا من الغرابة ، وان كنت لم أدرك السبب ، بل ان الكابتن نيلسون نفسه ..
فبادر هويتنى يقول مقاطعا :
— هذا صحيح ، فهذا الرجل القوى الشـــكيمة الصلب المراس ، الذى لا يهاب الأهوال ، بدا متوترا هو أيضا . ففى عينيه الزرقاوين ذات النظرات الثابتة

القاسية لمست نظرة جديدة لا عهد لى بها من قبل . ولقد استدرجته الى الحديث عما به ، فلم يزد على أن قال : « ان لهذه المنطقة سمعة سيئة بين رجال البحر يا سيدى » . ثم أردف يخاطبنى فى نبرة مفعمة بالقلق : « وانت يا سيدى ... الا يخامرك شعور غريب .. ؟ » .

واستطرد هوتينى يقول :

ــ ومن الغريب فعلا اننى ما سمعت كلماته حتى ساورنى شيء من القلق والتوتر ، كأنما الجو مشحون فعلا بما يثير الأعصاب . وأرجوك ان لا تسخر منى اذا قلت لك اننى شعرت عندئذ . بموجة من البرودة تشتمل جسدى وتسرى فى أوصالى .

فقال رينفورد فى رقة :

ــ ولم أسخر منك .. ؟

ــ لأننا كنا على خط الاستواء ، والجو ادنى الى الحرارة ، وليس فى الهواء نسمة واحدة ... كان الهواء ساكنا ، ومياه المحيط منبسطة هادئة ، ولكننا كنا نقترب من الجزيرة الملعونة .

وقال رينفورد ــ لا شك عندى فى أن ما شعرت به كان ضربا من الأوهام والخزعبلات ... بحار واحد يؤمن بالخرافات كفيل بأن ينقل العدوى الى كل فى السفينة .

ــ ربما كنت على حق ، ولكنى لا أكتمك أننى أعتقد أن للبحارة حاسة سادسة تشعرهم بما يحيق بهم حين يستهدفون للخطر ... وانه ليخيل الى احيانا أن للشر خيوطا خفية متشعبة ذات موجات أثيرية بعيدة المدى ، كالضوء والصوت . ولهذا يمكننى أن

أقـول ان المكان الشرير يطلق موجـاته أو ذبذباته فتشتمل كل من يقترب منه وتؤثر فيه . واننى لسعيد بأننا ابتعدنا عن هذه المنطقة .

وران عليهما الصمت برهة ، ثم قال هويتنى .

ـ اننى متعب قليلا ، وسآوى الى فراشى .

ورد عليه رينفورد قائلا :

ـ أما أنا فلا يراودنى النعاس ، وسأبقى قليلا لأدخن فترة من الوقت ، ثم أمضى الى مقصورتى .

ـ اذن طابت ليلتك ، وسألقاك على مائدة الفطور

ـ حسنا ... الى اللقاء اذن يا هويتنى .

* * *

لبث رينفورد جالسا على سطح اليخت ، يدخن غليونه ، ومن حوله ليل ساكن ، لا تسمع فيه الا هدير المحرك الذى يدفـع اليخت فى انسـياب سريع الى أحضان الظلام الدامس ، ورشاش الماء وهو يتطاير فى الجو حين تضربه مراوح اليخت .

وتراخى رينفورد فى كرسى وثير من كراسى البحر ، مستمتعا بلذة التبغ الذى يدخنه ، وقد خامره شعور بالخمول لفرط الهدوء الذى يشتمل المكان .

وسرح ببصره بعيدا ، محـاولا أن يخترق حجب الظلام .

ثم قال فى نفسه :

ـ الا ما أشد هذه الظلمة ... ! ان فى وسعى أن أنام دون أن أطبق عينى ، فان ظلام الليل بمثابة الجفون .

وجاء صوت فجائى جعله يحفل فى فزع .

لقد صدر الصوت من ناحية اليمين ، وهو لا يمكن أن يكون مخطئا ، فان من يتخذ الصيد والقنص هواية لا يلبث أن يصبح خبيرا بالأصوات ، يميز بينها ، ويتبينها حتى لو كانت خافتة لا تكاد تسمع .

وللمرة الثانية سمع نفس الصوت ، ثم عاد يتردد فى سمعه للمرة الثالثة .

هناك فى قلب الظلام ، أطلق بعضهم الرصاص ثلاث مرات ... ثلاث طلقات نارية متتابعة .

هب رينفورد واقفا ، ومشى مسرعا الى سياج اليخت ، وقد استبدت به الحيرة والغموض .

وركز بصره محدقا الى الناحية التى صدر منها دوى الطلقات الثلاث . ولكن كان مستحيلا عليه أن يتبين شيئا ، أى شىء ، فى هذه الظلمات الكثيفة .

وأراد أن يوسع أمامه مجال الرؤية ، فاعتلى أحد القضبان الأفقية للسياج ، وهو ممسك بالقضيب العلوى ، وفى صعوده اصطدم غليونه بأحد الحبال ، فطار من بين شفتيه منحدرا الى البحر ، وبسط رينفورد يده بسرعة محاولا أن يمسك بالغليون .

وكان أن اختل توازنه ، فحاول أن يتشبث بالسياج ، ولكن جسمه انثنى الى الخارج ، وأطلق صرخة داوية ، وهوى من فوق سياج اليخت .

وان هى الا لحظات خاطفة حتى أطبقت عليه مياه البحر الكاريبى ، وطوته اللجة فى غير تردد .

حاول رينفورد أن يصعد الى ظهر المياه ، وحاول أن يصرخ مستنجدا ، ولكن الموجة التى دفعتها مراوح اليخت المسرع لطمت وجهه فى عنف حتى كادت تفقده الوعى ، كما تلقى فاهه المفغور كمية من الماء المالح كادت أن تخنق حلقه .

وفى يأس وقنوط أخذ يجدف بكل قوته ، محاولا أن بأنوار اليخت التى كانت تبتعد وتتضاءل .

بيد أنه توقف عن السباحة ولما لم يقطع عشرين مترا .

لقد عاودته رباطة جأشه ، واسترد هدوء أعصابه وثباتها ، فذلك لم يكن أول مأزق تردى فيه .

ثمة فرصة قد تسنح ، فيسمع صرخاته من يستقلون اليخت ، ولكنه ما كان ليخدع نفسه فى هذا ، فقد كان يعرف انها فرصة ضئيلة ، وضآلتها تشـــتد كلما جد اليخت فى سيره مبتعدا ، ومع ذلك فانه لن يضيعها ، مهما بلغ من ضآلتها .

وجاهد حتى استطاع أن يخلع ثيابه وهو فى الماء ، حتى تزداد سرعته ، وانطلق يصرخ بملء قوته ، وفى الوقت نفسه كان يسبح بأقصى سرعته ، محـــاولا اللحاق باليخت .

بيد أن هذا الأمل تبدد وتلاشى ، اذ مضى اليخت ينأى رويدا رويدا ، وأخذت أنواره المتلألئة تخبـــو تدريجيا ، حتى طواها الظلام .

وذكر رينفورد الطلقات النارية التى تنـــاهى الى سمعه دويها .

لقد صدرت من ناحية اليمين ، وهذا معناه ان فى تلك الناحية شخصا أو أشخاصا هم الذى أطلقوا هذه الرصاصات الثلاث .

وعلى الفور تحول الى اليمين ، وأخذ يسبح فى هذا الاتجاه .

كان يسبح فى بطء ، ولكن بضربات ثابتة ، محاولا أن يدخر قوته أقصى فترة ممكنة ، اذ كان لا يعرف متى ينتهى هذا النضـــال مع البحر .

وأخذ يسبح ، ويسبح ... وخيل اليه أن كفاحه لا نهـاية له . وجعـل يحصي ضرباته ... انه لن يستطيع أن يضرب المـاء بعد ذلك الا مائة ضربة على الأكثر . وبعدها لابد أن تخور قواه ، ويتخاذل جلدة ـــ وعندئذ ...

وسمع رينفورد صرخة .

من أعمـاق الظلام انطلقت الصرخة ... وكانت صرخة عالية ، داوية ... صرخة حيـوان معـذب مذعور .

ولم يستطع رينفورد أن يتعرف على فصيلة الحيوان الذى أطلق هذه الصرخة ، بل أنه لم يهتم أن يتبينه .. كان كل همه أن يصل الى مصدر الصوت .. وبحيوية جديدة ، وبجهد جديد ، أخذ يضرب الماء بذراعيه ، يشق طريقه فيه ، سابحا الى حيث صدر الصوت .

وللمرة الثانية سمع الصرخة الداوية ، ثم سكت كل شيء ، وساد الهدوء ، عقب طلق نارى آخر .

وقال رينفورد فى نفسه وهو ما زال يسبح بـكل قوته :

ـــ هذه طلقة من مسدس .

* * *

بعد عشر دقائق من الجهد الخارق سكت مسامع رينفورد أجمل أصوات طرقت أذنيه طوال حياته .

لقد سمع مياه البحر وهى تضرب شاطئا صخريا وتتكسر عليه .. !

اذن ، فهناك على كثب منه أرض يمكن أن يلوذ بها .

وان هى الا لحظات حتى كانت الصخور منه على قيد ضربة ذراع .

وبكل ما به من بقية القوة تشبث بأول صخرة لمستها يده ، فهذه الصخرة هى طوق النجاة من الموت الذى كان يتربص به .

وكانت فى الصخرة شقوق عديدة أحدثتها ضربات المياه ، فأخذ يدس أصابعه فى تلك الشقوق ، واحدا بعد الاخر ، محاولا أن يتسلق الصخرة ، وأنفاسه تتلاحق لاهثة مبهورة ، حتى انتهى أخيرا الى بقعة مسطحة عند القمة .

دار ببصره فيما حوله ، فتبين أن تلك الصخور تشرف على هوة عميقة تنتشر فيها غابة متشابكة ، وراح يسائل نفسه عما تضمه هذه الغابة من مخاوف، وما تدخر له من أهوال . على ان هذه الخواطر لم تبعث فى نفسه ذرة من القلق ، اذ كان حسبه فى هذه اللحظة أن يفكر فى أنه نجا من الموت ... نجا من عدوه الأكبر ، وهو البحر .

والقى بجسده على الأرض ، وما لبث أن غرق فى نوم عميق لم يشهد له مثيلا من قبل .

حين فتح رينفورد عينيه واستفاق من نومه ، أدرك من موضع الشمس أن الوقت جاوز الظهيرة بعدة ساعات . وقد أفاده هذا النوم كثيرا ، وأفاض عليه نشاطا وحيوية دافقة . وأحس بالجوع يفرى أحشاءه ، ولكن لم تكن هذه بالمشكلة العويصة .

ان الطلقات النارية التى سمعها تدوى دليل قاطع على أن فى هذا المكان انسانا ، وحيث يوجد الانسان ، فلابد من وجود الطعام .

هذا ما دار فى ذهنه ، فسرى الاطمئنان الى نفسه .
على انه ما لبث أن راح يسائل نفسه : أى نوع من الناس هنا واى طراز .. ؟ هل هم من المتوحشين الذين سوف ينقضون عليه ، فيمزقونه اربا .. ؟ أم هم قوم متحضرون يجد منهم ما تصبو اليه نفسه من ترحيب .. ؟ وهذه الغابة .. ؟ أهى مهبط الأهوال ، أم مناط الأمل والرجاء ..

والقى ببصره الى الغابة التى تحت قدميه ، والتى تنحدر اليها الصخور فى خط يكاد يكون راسيا .

كانت أشجار الدغل متكاثفة متشابكة ، تتعانق أشجارها وتتداخل ، ولم يتبين فيها طريقا يمكن أن يسلكه . ثم ان الهبوط اليها قد يكون شاقا مضنيا ، فآثر رينفورد أن يمشى على الصخور التى تدور بالجزيرة ، فهذا أهون مشقة من اقتحام الغابة وأبعد عن مواطن الخطر .

ولاحظ وهو ماض فى طريقه خيطا من الدماء يلوث الأرض ... هذا حيوان جريح دون شك ... حيوان كبير ضخم الجثة ، فها هى ذى قوائمه مطبوعة بصماتها على الأرض ، ثم انه اتجه الى الغابة هاربا والدماء تنزف منه ، فبذلك يوحى خيط الدم ، ثم ان الأعشاب والشجيرات مهصورة تحت وطأة ثقله وسبب جسمه الضخم فى المكان الذى دخل منه الى الغابة .

واسترعى بصر رينفورد شيء لامع على الأرض ، فمال فوقه والتقطه ، فاذا به خرطوشة فارغة ، ادرك على الفور انها خرطوشة مسدس من عيار ٢٢ .
وقال فى نفسه : عجبا .. ! عيار ٢٢ لصيد حيوان مفترس .. ! الحق انه صياد جرىء ... لا شك ان

الرصاصات الثلاث الأولى جرحت الطريدة ، ولعل الرصاصة الرابعة قضت عليه ، فهو الان فى الغابة جثة هامدة .

وانكب على الأرض يفحصها ، وكان سعيدا حين اكتشف ما كان يصبو اليه ... كانت منطبعة على الأرض آثار حذاء الصيادين . وكان اتجاهها يشير الى نفس الاتجاه الذى كان ماضيا اليه . واسرع يوفض الخطى ، ولكن فى حذر وحيطة ، فقد كان الطريق الذى يسلكه وعرا ، مليئا بالحصى والحجارة ، تنتشر حفر كثيرة يمكن أن تكون مزالق خطر داهم .

وكانت الشمس قد غابت وراء الأفق ، وأخذ ظلام الليل ينشر أستاره على الأرض ، واشتدت الغابة رهبة ووحشة .

وفجأة ، حين انعطف عند أحد المنحنيات ، لاحت له الأنوار على البعد ، وطفرت السعادة الى قلبه متدفقة طاغية ... ها هو ذا موشك أن يقع على ملاذ آمن ، يحميه من الجوع ومن الوحوش .

كان أول خاطر دار فى ذهنه أن هذه أنوار أحدى القرى ، ولكن حين تقدم فى مسيرته أدرك ان هذه الأنوار كلها انما تنبعث من مبنى واحد ... مبنى شاهق له أبراج شامخة تشق طريقها عبر السماء ... انه قصر كبير مشيد على ربوة عالية ، وجوانبه الثلاثة تشرف على الجرف المتصل بالبحر ، حيث تتكسر أمواجه على الصخور .

وقال فى نفسه وقد راودته فكرة يائسة :

ــ أهذا قصر حقيقى ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد خداع بصر .. ؟ مجرد سراب ووهم من الأوهام ... !

ولكنه لم يكن سرابا ، ولا خداع بصر .

ها هى ذى البوابة الحديدية أمامه ... وها هو ذا يلمس بأصابعه قضبانها الحديدية الباردة ... وها هى ذى البوابة تنفتح حين دفعها بيده ... وها هى أخيرا الدرجات الرخامية امامه ، وقد استقرت قدمه على أول درجة منها .

كل هذه حقائق مادية ، وليست وهما خداعا .

وارتقى الدرج ، والقى رينفورد نفسه واقفا أمام باب خشبى ضخم ، تتوسطه مطرقة من الصلب .

ورفع المطرقة ، ثم أنزلها يخبط الباب ، وجعله دويها يجفل ويباغت . ولكن الباب لم ينفتح .

وعاد يطرق الباب من حديد ، وتناهى الى سمعه وقع خطوات من وراء الباب المغلق .

وان هى الا لحظات حتى تحرك الباب وفتح ، ومضى رينفورد يرمش بعينيه ، فقد بهرت بصره الأنوار المتلألئة التى تدفقت من الداخل .

وحين استقر بصره ، وجد نفسه يحملق فى رجل لم ير فى حياته من هو أضخم منه جسما وأطول قامة .. عملاق ضخم كالمارد يرتدى بزة رسمية من القطيفة السوداء ، وأزرارها من النحاس الأصفر . وكان الرجل ملتحيا يكاد الشعر يحجب وجهه ، ومن وسط هذه الغابة من الشعر تبرز عينان صغيرتان ، تنبعث منهما نظرات صلبة ثابتة .

وكان فى يد الرجل مسدس ذو فوهة طويلة ، وكان المسدس مصوبا الى صدر رينفورد .

وقال رينفورد وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة يحاول بها أن يبدد مخاوف الرجل ذا المسدس .

ــ لا تخف يا صاح ... اننى لست لصا ... لقد وقعت من اليخت الذى كنت أركبه ، وكدت أغرق .. ان اسمى هو سانجر ريفورد من نيويورك .

بيد أن نظرة الوعيد التى تطل من عينى العملاق لم تتبدل ، والمسدس المصوب الى صدر رينفورد كان لا يزال فى موضعه ، ينذر بالموت . ولم يبد فى سمات وجه الرجل انه تأثر بكلمات رينفورد ، أو أنه حتى وعى معناها أو سمعها ، فقد كانت سحنته جامدة جمود الحجر الأصم .

وعاد رينفورد يقول فى نبرة ودية !

ــ اننى سانجر ريتفورد من مدينة نيويورك .. لقد وقعت من اليخت .. وأنا جامع لأنى لم أذق طعاما منذ الأمس .

وكان الرد الوحيد الذى تلقاه رينفورد هو أن العملاق حرك المسدس قليلا ليحكم التصويب ، كما وضع طرف أصبعه على الزناد .

وفجأة اعتدل العملاق فى وقفته ، وضم قدميه أحدهما الى الآخر فى وقفة عسكرية ، ثم رفع يده الى رأسه بالتحية . وعندئذ رأى رينفورد رجلا آخر يهبط الدرج الرخامى العريض المفضى الى الطابق العلوى .

كان الرجل طويل القامة ، نحيف البنية ، رشيق القوام . وكان مرتديا ثياب المساء .

وتقدم الرجل الى رينفورد ، وبسط اليه يده مصافحا .

وفى نبرة مهذبة قال :

ــ انه ليسعدنى كثيرا أن أرحب فى بيتى بمستر سانجر رينفورد الصياد الشهير .. اننى الجنرال

زاروف . ولقد قرأت كتابك عن « صيد الفهود فى جبال التبت الثلجية » .

كان أول انطباع لرينفورد أن الرجل وسيم القسمات، وكان الانطباع الثانى ان فى وجهه شيئا غريبا يسترعى الانتباه . كان الرجل مديد القامة ، فى سن الكهولة ، لأن شعره كان أشيب شديد البياض ، ومع ذلك كان شاربه ـ على النقيض ـ شديد السواد ، وكذلك كان شأن حاجبينه . أما عظام وجنتيه فكانت شديدة البروز ـ وجملة القول أنه كان وجه رجل ارستقراطى ألف اصدار الأوامر ، وألف أن يطاع .

وتحول الجنرال الى العملاق الشاهر مسدسه ، وأمأ اليه ايماءة خاصة ، فأودع المسدس جرابه ، ورفع يده بالتحية العسكرية ، ثم انسحب مبتعدا .

وقال الجنرال باسما فى لهجة ودية :

ـ ان ايفان رجل شديد الصرامة بشكل شاذ ، وقد نكب بفقد السمع والقدرة على الكلام ، فهو أخرس أصم . وهو رجل طيب السريرة ، ولكنه كسائر عشيرته حاد الطباع .

وسأله رينفورد : أهو روسى ؟

ـ نعم .. انه من القوزاق .

واتسعت ابتسامته حتى اشتملت وجهه ، وكشفت الابتسامة عن أسنان ناصعة البياض ، وقال :

ـ وانا أيضا قوزاقى .

ثم استطرد فى صوت رقيق النبرات :

ـ آه .. لقد كدت أنسى نفسى .. دعنا الآن من هذا الحديث ، ففى وسعنا أن نتحدث فيما بعد ، ففى الوقت متسع لذلك . أما الآن فأنت فى حاجة الى الثياب والطعام ، وسيكون لك منهما ما تشاء .

وجاء ايفان بعد لحظات ، وتحدث اليـه الجنرال بتحريك شفتيه ، ولكن دون ان يتفوه بالكلام فكثيرون من الخرس الصم يستطيعون أن يدركوا ما نقول اذا أنت حركت شفتيك فى بطء ، دون حاجـة منك الى النطق .

ثم تحول الجنرال الى رينفورد قائلا :

ــ أرجوك أن تتبع ايفان يا مستر رينفورد .. اننى كنت موشكا أن أتناول عشائى عندما قدمت ، ولـكننى سأنتظرك وستجدان ثيابى تلائم مقاسك فيما أعتقد .

ومضى ايفان يتقدمه الى مخدع النوم ، وكانت غرفة واسعة رحبة ، يتصدرها سرير عريض جدا يتسـع لخمسة أشخاص .

ووضع ايفان على الفراش ثياب المسـاء ، وحين تناولها رينفورد ليرتديها ، لاحظ أنها مفصلة فى لندن ، وان اسم الترزى المدون عليها من أشهر صناع انجلترا ، وان عملاءه من كبار اللوردات والدوقات .

وكانت غرفة المـائدة التى دعى اليها رينفورد رائعة الفخامة ، مؤسسة بأفخر الرياش ، تتوسطها مائدة كبيرة طويلة ، وتدلى من سقفها العالى ثريات بلورية ضـخمة .

والى رأس المـائدة كان الجنرال جالسا ، مرتديا ثياب المساء ، ينتظر قدوم ضيفه .

وقال الجنرال : أحسب أنك تريد قدحا من الكوكتيل يا مستر رينفورد قبل تناول العشاء .

وأمأ رينفورد برأسه شاكرا .

وكان الكوكتيل من نوع فاخر ، قدم اليه فى كوب من البلور الممتاز .

وأعقب الكوكتيل قدح من الشمبانيا .

وقال الجنرال : اننا نحاول هنا أن لا نتخلف عن قواعد الحضارة ، ولكننى أرجو أن تكون الشمبانيا لا تزال محتفظة بمذاقها ، وأن لا يكون حفظها فترة طويلة قد أفسدها .

فقال رينفورد : ان مذاقها طيب جدا .

وحين قدم الطعام وجد أن الصحاف من الفضة الخالصة ، كما أحس أن الجنرال زاروف مضيف مجامل شديد الرعاية لضيوفه ، ويتحرى راحتهم .

على أن الشىء الذى أثار انتباهه ، وبعث فى نفسه شيئا من القلق ، هو أنه ما رفع بصره مدة ونظر الى الجنرال زاروف ، الا وجد الجنرال يحدق فيه ويتأمله باهتمام .

وقال الجنرال يتحدث الى ضيفه !

ــ لعل الدهشة راودتك حين وجدتنى أعرف انك من كبار الصيادين .. الواقع اننى دائم الاطلاع على كل ما يكتب عن الصيد والقنص باللغات الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية ، فهوايتى الوحيدة فى هذه الدنيا يا مستر رينفورد هى الصيد .. انه الشىء الوحيد الذى اتعلق به وأعشقه .

وقال رينفورد وهو يدير عينيه فى رؤوس الوحوش المعلقة على جدران القاعة :

ــ ان لديك هنا مجموعة رائعة من رؤوس الحيوانات .

واستقر بصر رينفورد على رأس من بينها وقال :

ــ انى لم أر رأس ثور بهذا الحجم ... انه أضخم رأس شاهدته فى حياتى .

فقال الجنرال : آه ... هذا الرأس .. ؟ كان هذا الثور عملاقا ، وهو من فصيلة كيب .

وقال رينفورد فى اهتمام :
ـ وهل هاجمك يا ترى .. ؟
ـ الواقع انه طاردنى بوحشية ، ووجدتنى محصورا فى مكان ضيق ، وظهرى مستند الى احدى الأشجار ، وهو منطلق الى ناحيتى للانقضاض على ، وقد عاجلته برصاصة قاتلة ، ولكن قرنه أصاب جبهتى، وأوشك ان يهشمها .
فقال رينفورد : كنت أعتقد دائما أن ثيران كيب هى أشد الطرائد وحشية ، وان صيدها من أشد المخاطر .
ومرت لحظات والجنرال صامت لا يعقب برأيه ، وان ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة ، وقد أطلت من عينيه نظرة تنطوى على معنى مثير لم يدرك رينفورد كنهه .
ثم قال فى كلمات بطيئة متمهلة :
ـ كلا يا مستر رينفورد ... انك مخطىء فى هذا ... ان ثيران كيب ليست أشد الطرائد خطرا .
وتناول رشفة من قدحه ، ثم استطرد :
ـ فى هذه الجزيرة طرائد أشد خطرا من ثيران كيب
فقال رينفورد فى شيء من الدهش :
ـ أفى هذه الجزيرة طرائد صالحة للصيد والقنص.
وأومأ الجنرال برأسه قائلا :
ـ بل فيها أكبر الطرائد وأشدها وحشية .
ـ حقا .. ؟ هذا غريب .
فابتسم الجنرال وقال :
ـ ان الجزيرة لم تكن موطنها الأصلى ، ولكننى جئت بها الى الجزيرة ، وأطلقتها فيها ، فتناسلت ، واتخذتها موطنا جديدا .

وتساءل رينفورد : وما هى الحيوانات التى استوردتها يا جنرال .. ؟ نمور .. ؟

وعاد الجنرال يبتسم من جديد وقال :

ـــ كلا يا مستر رينفورد ... ان صيد النمور لم يعد منذ سنوات يثير اهتمامى ... لم يعد فى قنص النمور من المخاطر ما يشبع ولعى بالمغامرة ... اننى مولع بالخطر يا مستر رينفورد ، وقد وهبت حياتى للاخطار .

وتناول الجنرال من جيبه علبة سجائر ذهبية ، وقدم الى زائره سيجارة طويلة سوداء اللون ذات مبسم فضى ، وحين اشعلها رينفورد تصاعد منها شذى عطرى .

وقال الجنرال وهو ينفث دخان سيجارته :

ـــ ستقوم ، انت وانا ، بحملة صيد رائعة ، وسوف يسعدنى أن أكون فى صحبتك .

وقال رينفورد متسائلا :

ـــ ولكن ما هى الطرائد التى سنقوم بصيدها .. ؟

ـــ سأخبرك ، وسوف يثيرك ما تسمع .

وبعد سكتة قصيرة استطرد الجنرال يقول :

ـــ اننى استطيع ان أقول بمنتهى التواضع ، وبمنتهى الفخر أيضا ، اننى انجزت شيئا نادرا ... لقد قمت بابتكار مثير .. وانى لفخور بذلك .. اتحب يا مستر رينفورد أن تشرب قدحا آخر من النبيذ . ؟

ـــ شكرا لك يا جنرال .

وملأ الجنرال كأسين ، قدم أحدهما الى ضيفه .

واستطرد يقول : يخلق الله الناس طبقات مختلفة ، فيجعل بعضهم شعراء ، ويجعل سواهم ملوكا ،

وغيرهم فقراء متسولين .. أما أنا ، فخلق منى الله صيادا ... لقد قال أبى عنى أن يدى خلقت لكى تضغط الزناد ... كان أبى ثريا واسع الثراء ، وكان يملك فى بلاد القرم ربع مليون فدان ، كما كان رياضيا أصيلا ممتازا .

وتناول الجنرال زاروف جرعة من النبيذ ، ومضى يقول :

ــ وحين كنت فى الخامسة من العمر أعطانى بندقية صغيرة صنعت من أجلى خصيصا فى موسكو ، وطلب منى أن أصيد بها العصافير ، وهكذا تدربت على اصابة الهدف واحكام التصويب . وقد استطعت أن أصيد دبا فى جبال القوقاز ، وأنا بعد فى العاشرة من عمرى ... وهكذا كانت حياتى كلها حلقة متصلة من الصيد والقنص . وحين التحقت بالجيش ، توليت قيادة كتيبة من فرسان القوازق ، ولكن اهتمامى الوحيد لم يكن يثيره الا الصيد . وقد اصطدمت جميع أنواع الحيوان والوحوش ، وفى شتى بلاد العالم ، والواقع أنه عسير على أن أحصى ما اصطدت حتى اليوم ، فالطرائد التى صدتها تفوق الحصر .

ونفث الجنرال عدة أنفاس من سيجارته ، ثم استرسل :

ــ بعد نشوب الثورة البلشفية فى روسيا غادرت البلاد ، فليس من الحكمة أن أبقى هناك فى عهد الثورة وأنا من ضباط القيصر . وكان من حسن ظنى اننى كنت أستثمر جزءا كبيرا من ثروتى فى سندات أمريكية ، فلما هاجرت من وطنى كان لدى من المال ما يهىء لى حياة مترفة . وهكذا مضيت أمارس مهنة القنص فى

شتى البلاد ، فصدت الظباء فى جبال روكى الأمريكية ، والتماسيح فى الكونغو ، والخرتيت فى شرق أفريقيا . والحادث الذى شجت فيه رأسى حين نطحنى ثور كيب انما وقع لى فى أفريقيا ، وقد لزمت الفراش فى المستشفى عندئذ ستة شهور كاملة . ولكنى ما كدت أشفى واسترد عافيتى حتى رحلت الى بلاد الأمازون لأصيد الفهود ، لما سمعت عن دهائها .

وند الجنرال القوزاقى تنهدة عن صدره وقال :

ــ ولكن فهود الأمازون لم تكن من الدهاء بالقدر الذى وصف لى .. لقد بالغوا فى وصفها بالمكر والدهاء وقدرتها على خداع الصياد ، فان أى صياد على قدر معقول من الذكاء يستطيع أن يصيدها بسهولة ، ما دام يحمل فى يده بندقية قوية بعيدة المدى .

وبعد سكتة قصيرة استتلى الجنرال زاروف الحديث بقوله :

ــ حدث ذات ليلة أن كنت راقدا فى خيمتى أشكو صداعا كاد أن يحطم رأسى . وعلى حين بغتة غزت رأسى فكرة عجيبة ... فكرة رهيبة ... قلت فى نفسى ان الصيد قد أصبح عندى باعثا عن الملل ، خاليا من الاثارة ، وانه فقد روح المغامرة ... ولعلك تذكر ما قلته لك من أن الصيد هو حياتى التى أعيش من أجلها ، واننى أن تخليت عن ممارسته فكأننى قضيت على نفسى بالموت .

فقال رينفورد : اننى مقدر مشاعرك تماما .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى الجنرال وقال :

ــ ولا يروق لى طبعا أن أقضى على نفسى بالموت .

وأنا يا مستر رينفورد رجل متفتح الذهن ، قادر على التحليل ، أعرف كيف أربط المقدمات بالنتائج ، ولهذا سألت نفسى عما جعل الصيد عندى متجردا من الاثارة، باعثا على الملل ... ما هو السبب الذى جعل الصيد خاليا من المغامرة .. ؟

وقال رينفورد : نعم ... ما هو السبب .. ؟

ـ السبب فى ان الصيد لم يعد ممتعا هو انه أصبح سهلا هينا ... أخرج الى الصيد ، ثم أعود حاملا الطرائد ... عملية خالية من المشقة .. عملية روتينية مملة ... اين النضال .. ؟ اين النضال .. ؟ اين المغامرة .. ؟ لا شيء من هذا .

وأشعل الجنرال سيجارة جديدة ، واسترسل :

ـ لم يعد لأى حيوان مهما كان شأنه فرصة للفرار من رصاص بندقيتى ... ليس هذا ضربا من الغرور، ولكنه الحقيقة الواقعة ... ليس للحيوان الا قوائمه وغرائزه ، والغريزة مهما كانت مرهفة لا يمكن أن تضاهى العقل فى قدراته ... وعندما ما خطرت لى هذه الفكرة يا مستر رينفورد كانت لحظة مأساوية .

ومال رينفورد الى المائدة يستند اليها بمرفقيه ، وقد أثاره حديث الجنرال زاروف .

واستطرد رب الدار : ونزل على فيما يشبه الالهام ما ينبغى أن افعل .

ـ وما كان هذا يا ترى .. ؟

وارتسمت على شفتى الجنرال ابتسامة هادئة واستطرد :

ـ يجب أن « أخترع » حيوانا جديدا لكى أصيده.

— حيوان جديد .. ؟ انك تمزح يا جنرال .. ؟
فقال الجنرال فى جدية ورصانة :
— اننى لا امزح ... انى ما أتخذت من الصيد فى حياتى سببا للمزاح ... الصيد عندى أمر مقدس لا مزحة فيه ... نعم اننى فى حاجة الى حيوان جديد ينطوى صيده على الاثارة .
ولاذ الجنرال بالصمت هنيهة ، ثم قال فى اقتضاب.
— وقد وجدته ... وجدت هذا الحيوان الجديد. ولهذا السبب اشتريت هذه الجزيرة ، وشيدت فيها هذا البيت ، واتخذت منها مسرحا للصيد ... ان هذه الجزيرة خير مكان للصيد والقنص ، ففيها غابة كبيرة كثيفة ، كما أنها مليئة بالتلال والمستنقعات .
— ولكنك لم تحدثنى يا جنرال زاروف عن حيوانك الجديد ... هذا الذى اخترعته ، وكيف اخترعته .
— اوه .. ! لقد هيأ لى اقوى أسباب الاثارة فى عملية الصيد .. انى الآن امارس الصيد كل يوم ، ومع ذلك اشعر ابدا بالملل ، وذلك لأن للطريدة التى اسعى وراءها « عقل » يمكن أن يكون ندا للعقل الانسانى .
فبادر رينفورد يقول معترضا :
— ولكن ليس ثمة حيوان له عقل ... أن الحيوان عاجز عن التفكير .
— ولكن حيوانى أنا يا عزيزى رينفورد له عقل ، ويستطيع أن يفكر ... انه فى هذه الدنيا الحيوان الوحيد الذى ميزه الله بالعقل وبالقدرة على التفكير.
— هذا عجيب ... هذا مستحيل ... تصيد البشر .. ؟

ـ ولم يكن مستحيلا .. ؟
ـ انى اعتقد يا جنرال انك لست جادا فيما تقول ... اغلب الظن أن قولك هذا مزحة مبالغا فيها .
ـ قلت لك اننى لا أمزح أبدا فيما يتعلق بالصيد ... ان له عندى مرتبة القداسة .
ـ وهل تسمى هذا صيدا وقنصا يا جنرال زاروف .. ؟ انه قتل واغتيال .
وأطلق الجنرال ضحكة مرحة وقال :
ـ انى لا استطيع أن أصدق ان رجلا متحضرا مثلك جاب بلاد الدنيا كلها يمكن أن يتشبث بهذه الأفكار الخيالية عن قيمة الحياة البشرية ... انك التحقت بالجيش وحاربت ، فهل كتبت خلال المعارك تعف عن القتل .. ؟
ـ هذا شيء مختلف تماما يا جنرال ، فالقتل شريعة الحروب ، أما ما تتحدث أنت عنه فقتل متعمد .
وعاد الجنرال يطلق ضحكة صاخبة ، وحين تماسك وكف عن الضحك ، مضى يقول :
ـ ما أغرب أمرك يا صديقى .. ! انى ما كنت اتصور أبدا أن التقى فى هذا العصر برجل له سذاجتك ... ان افكارك يا صديقى قد أصبحت بائدة ، ولا محل لها الا فى العصر الفكتورى ... عصر الأجداد الذين اندثروا واندثرت معهم مبادئهم الساذجة .
ثم استطرد يقول وقد علت شفتيه ابتسامة عريضة .
ـ لا شك عندى فى انك ستطرح عنك هذه الأفكار البالية حين تخرج ـ انت وانا ـ للصيد معا ...

سوف تلمس فى طريقة متعة مثيرة لم تشهد لها مثيلا من قبل .

فرد رينفورد فى صوت حازم النبرات !

ــ اننى صياد يا جنرال ، ولكننى لست قاتلا .

وهتف الجنرال زاروف فى استنكار :

ــ يا الهى .. ! انعود مرة اخرى فنردد هذه العبارات البشعة .. ؟ انى موقن من أن فى وسعى ان أغير عقيدتك ، وأن ابرهن لك على ان ثورة ضميرك لاتستند الى أساس .

ــ حقا .. ؟ وكيف ذلك بالله عليك .. ؟

ــ اسمع يا عزيزى رينفورد ... ان الحياة للأقوياء ، لا للضعفاء ... الأقوياء هم الذين يجب أن يعيشوا ، أما الضعفاء فلا مفر من أن يندثروا ...ان على الأقوياء أن يأخذوا الدنيا اغتصابا ــ تلك هى سنة الحياة وشريعة الأقوياء .

ولاذ بالصمت برهة خاطفة جرع خلالها رشفتين من شرابه ، ثم استرسل يقول :

ــ اننى رجل قوى ، فلم لا أستغل موهبتى .. ؟ اننى اريد أن أمارس الصيد ، فما الذى يحول دونى وممارسته .. ؟

ثم يجب أن تعلم اننى لا أصيد من الرجال الا حثالة الأرض وصعاليك الناس ... اننى أصيد أخس الفئات : البحارة الذين يعملون على سفن التهريب ، وهم كما تعلم من أحط الطبقات ... انهم جميعا من اللصوص والمحتالين والمحكوم عليهم الهاربين من سطوة القانون ... انهم من حثالة الزنوج والصينيين ... ان حياة الطلب اقدس عندى من حياة هؤلاء القوم .

فقال رينفورد فى انفعال :
ــ أنسيت يا جنرال انهم بشر .. ؟ بشر مثلنا ..؟
ــ وهذا هو ما يجعلنى شغوفا بصيد الرجال... انى أجد فى ذلك متعة لا تضاهيها متعة أخرى ... انهم يستطيعون أن يفكروا ، وهم يحاولون أن يبطشوا بى ، وفى هذا ما يضفى على عملية الصيد اثارة رائعة ...

وقال رينفورد متسائلا فى اهتمام :
ــ ولكن كيف تحصل على هؤلاء الرجال .. ؟ من أين تأتى بهم .. ؟

واطلق الجنرال ضحكة مرحة وقال :
ــ أتعرف الاسم الذى يطلقه البحارة على هذه الجزيرة . .؟ انهم يسمونها : « مصيدة السفن » ، ففى بعض الأحيان يثور البحر ، ويقذف الى الشاطىء ببعض السفن ، فترتطم بالصخور وتتحطم ، ويقع بحارتها بين يدى . أما اذا بخل على البحر بالصيد المنشود ، فان لدى وسائل أخرى أجتذب بها السفن ... تعال انظر من النافذة لأريك ما أعنى .

ومشى رينفورد الى النافذة ، وأطل منها على البحر .

كان الظلام ضاربا أطنابه ، لولا شعاع ضئيل ينبعث من القمر الذى تخفيه غلالة خفيفة من السحب

وقال الجنرال وهو يومىء بأصبعه الى الفضاء خارج النافذة :
ــ والآن انظر ما سوف يحدث .

ثم ضغط زرا فى الجدار ، فاذا ومضات من النور تتلألأ وتنطفىء تباعا ، مرة بعد مرة .

وأغرق الجنرال فى الضحك وقال :

ــ هذه الأنوار كما رأيت شبيهة بأنوار الفنارات التى ترشد السفن الى مجرى آمن فى المناطق الصخرية ، فاذا ما رأت المراكب المارة بالقرب من جزيرتى هذه الأنوار، اتخذت طريقها مسترشدة بها : وهى تظن انها تجرى فى مجرى مائى خال من الصخور ، فى حين ان هذا المجرى لا وجود له . وهكذا ترتطم بصخور الجزيرة وتتهشم ، ويرتمى البحارة على الشاطىء متعبين مكدودى القوى ، فألتقطهم واودعوهم الى بيتى ، ثم اتخذ منهم فيما بعد طرائد للصيد ، يضاعفون عندى الشعور بالمتعة والاثارة .

ــ يا للقسوة .. ! تقتل بنى البشر ، وتجد فى هذا متعة واثارة .. !

وتبدت فى عينى الجنرال موجة من الغضب ، بيد انها لم تستغرق الا ثوان معدودات ، ثم ما لبثت أن تبددت وتلاشت ، وعاد يقول بتلك النبرات الرقيقة المهذبة :

ــ رحماك ربى .. ! يا لك من شاب مترمت ، متشبث بالمثل العليا .. ! انى أؤكد لك يا صديقى انك واهم فيما تقول ... اننى لا اقترف ما تظنه بى ... نعم ... انى لا أقتل ، والا كنت وحشا على صورة انسان ... اننى اعامل هؤلاء الضيوف بمنتهى الرعاية والاعزاز ... انى اقدم اليهم من الطعام كميات وفيرة ، واجعلهم يمارسون الألعاب الرياضية، وحين يصبحون فى صحة جيدة يشعرون بالامتنان لى ... وسوف تشهد ذلك بنفسك غدا .

فتساءل رينفورد : ماذا تعنى .. ؟

فارتسمت على شفتى الجنرال ابتسامة خفيفة وقال :

ـــ غدا ستزور مدرسة التدريب ... ان مقرها فى قبو البيت ، وبدى فى الوقت الحاضر حوالى عشرة تلاميذ أو اكثر قليلا ، وهم من بحارة السفينةالاسبانية « لارك » ، التى كان من سوء طالعها ان ارتطمت بالصخور ، فتهشمت ، ولاذ بحارتها بجزيرتى .

فقال رينفورد مقاطعا فى حدة :

ـــ وأنت طبعا الذى استدرجتها الى صخور الجزيرة بأنوار فنارك الزائف .

واستطرد الجنرال زاروف دون أن يأبه لهذه المقاطعة :

ـــ يجب أن أعترف أن طبقة البحارة حقيرة من أحط الطبقات ، كما انهم معتادون على حياة البحر دون الغابات .

ورفع يده يومىء الى ايفان الذى كان واقفا فى ركن القاعة بلا حراك ، حتى لكأنه تمثال قد من الصخر ، فأسرع الجندى يحمل الى مولاه أقداح القهوة التركية اللذيذة المذاق .

وتابع الجنرال الحديث قائلا :

ـــ عندما يصبح الرجل منهم فى حالة صحية جيدة ، ادعوه الى ، واقول له اننا سنخرج للصيد ، وأزوده بكمية وفيرة من الطعام تكفيه بضعة أيام ، وأسلحة بخنجر حاد من خناجر الصيد ، ثم اجعله يخرج الى الغابة قبلى بثلاث ساعات ، ثم اتعقبه مسلحا بأصغر أنواع المسدسات عيارا ، وبأقصرها مدى ... فاذا استطاع طريدتى أن يراوغنى ويفلت

منى ثلاثة أيام كاملة ، فــانه يفــوز على ، ويكسب اللعبة ، أما اذا عثرت عليه فانه يخسر ويفقد حياته .

فقال رينفورد متسائلا :

ــ هبه رفض أن يجعل من نفسه طريدة للصيد..؟

ــ ان له حق الاختيار طبعا ، وهو غير مجبر على ممارسة هذه اللعبة ان لم يكن راغبا فى ذلك ، فانى اكره ان ارغمه على شىء لا يرضاه .

ــ هل تعنى انه ان رفض ممارســة الصيد فانك تخرجه من الجزيرة ، وتبعث به الى أرض أخرى ..؟

ــ كلا طبعا ... ان رفض الصيد عهدت به الى ايفان ليتولى أمره ، وايفان ان كنت لا تعلم كان جنديا فى حرس القيصر ، وكان عمله هو جلد من يغضب عليهم القيصر السياط ... نعم .. ان ايفــان خبير باستعمال السوط ، واذا ما ذاق الرجل منهم ضربات السياط صاح يختار أن يكون طريدة الصيد .

وتساءل رينفورد : واذا أنت لم تعثر عليه وكسب اللعبة .. ؟

واتسعت ابتسامة الجنرال حتى اشتملت وجهــه كله وقال :

ــ ولكن حتى اليــوم لم أخسر الجــولة ولا مرة واحدة .

ثم استطرد يقول فى كلمات سريعة :

ــ ان كثيرين منهم يفكرون فى الهرب من القصر ، ولكن الفرار يكاد يكون مستحيلا مع وجود الكلاب .

ــ الكلاب .. ؟ ماذا تقصد .. ؟

ــ تعال معى من فضلك ، وسوف ترى بنفســك ما أقصد .

وقاد الجنرال ضيفه الى احدى نوافذ القاعة ،وكان الضوء الذى يتسرب من النافذة الى فناء القصر كافيا لكى يستطيع رينفورد أن يتبين على هذا الضوء الخافت اشباح تلك الكلاب الضخمة التى تتجول فى الفناء .

وحين شعرت الكلاب بأن غريبا يطل عليهـا من نافذة القصر ، رفعت رؤوسها الى أعلى مزمجرة ، وهى تتطلع اليه بعيون ينبعث منها الشرر .

وقال الجنرال : ان لدى من الكلاب مجموعةرائعة، وهى من خير الفصائل واذكاها واشدها شراسة ، وقد اعتدت ان اطلقها كل ليلة عند السابعة مساء ، فلو خطر لأحد من الناس أن ينزل الى الحديقة لمزقته أربا .

واستطرد الجنرال : والآن احب ان اريك ما لدى من مجموعة الرؤوس الآدمية ... فهل لك يا صديقى أن تصحبنى الى المكتبة .

وكان جواب رينفورد أن قال :

ــ ارجو أن تعفينى الليلة من مشاهدتها يا جنرال، فانى اشعر بشىء من التوعك .

فقال الجنرال فى نبرة توحى بالاهتمام .

ــ حقا .. ؟ لقد كنت اتمنى ان نخرج الليلة الى الصيد ... ومع ذلك لا غرابة فى أن تكون متوعكا مكدودا بعد أن سبحت هذه المسافة الطويلة ، ولكنك سوف تسترد نشاطك غدا ، وتشعر كأنما ولدت من جديد .

وعندئذ تمارس لعبة الصيد ، أليس كذلك .. ؟

ونهض رينفورد واقفا ، واتجه الى الباب فى خطوات متعجلة ، فى حين كان الجنرال يخاطبه قائلا :

ــ انه ليؤسفنى حقا اننا لم نخرج الليلة الى الصيد ، فقد كانت بى لهفة الى الاثارة ، ولست اشك فى اننى ساجد فيك طريدة لا مثيل لها لما جبلت عليه من ذكاء وحنكة وخبرة بمسالك الغابات ... وعلى اية حال فالغد ليس بعيدا .

ثم استطرد يودع ضيفه :

ــ طابت ليلتك يا مستر رينفورد ، وارجو لك نوما هادئا .

* * *

ولكن كيف يواتيه النوم ، وهو يعلم انه فى غده سوف يصبح طريدة صيد يلاحقها مجنون فى يده مسدس قاتل .

كان الفراش مريحا وثيرا ، وكانت البيجاما من الحرير الخالص ، وكان السكون شاملا ، وكان هو نفسه متعبا مكدودا ــ ومع ذلك جافاه النوم ، واستبد به الأرق .

كان منطرحا على الفراش ، وعيناه مفتوحتان ، وهو يحدق فى الظلام ، وفى ثنايا رأسه تصطخب من الأفكار والخواطر موجة بعد موجة .

وسمع مرة وقع خطى خفيفة مختلسة خارج غرفته ، وخطر له أن يفتح الباب ليتبين من يكون هذا الطارق الليلى ، وزايل فراشه ، واتجه الى الباب ، ولكنه استعصى وابى أن يفتح ... كان موصدا من الخارج . وسار الى النافذة ، واطل منها .

لقد أسكنوه غرفة فى أحد أبراج القصر ... غرفة تبعد عن الأرض عشرة أمتار ، ولا نتوءات فى الجدار يتعلق بها ليهبط الى الأرض ، ولا سبيل الى القفز والا دقت عنقه وتهشمت أضلاعه ... وحتى اذا استطاع ان يصل الى الأرض سالما ، فسوف تكون الكلاب المتوحشة فى انتظاره لكى تنهش لحمه وتمزقه اربا .

لا مفر اذن .. ! ان عليه أن ينتظر فى الغد مصيره .

كان ضوء القمر خابيا ، ولكنه استطاع على هدى هذه الأشعة الضئيلة أن يتبين معالم الفناء ...وهناك رأى تلك الاشباح المخيفة تروح وتغدو ، والشرر يطق من عيونها الشرسة .

ويبدو أن الكلاب فطنت الى وجوده فى النافذة ، فدفعت اليه رؤوسها ، واخذت تزمجر وتزوم .

وارتد رينفورد الى الفراش ، وانطرح عليه ، وحاول أن ينام ، وأخيرا غلبه النعاس ، بيد أنه صحا فجأة على دوى طلق نارى ، وقد أوشك نور الصباح ان ينبلج .

* * *

لم يظهر الجنرال زاروف مرة أخرى الا وهما على مائدة الغداء .

وأبدى الجنرال اهتماما كبيرا بالاستفسار عن صحة ضيفه ، وهل أصاب من النوم حظا طيبا .. ؟

وقال الجنرال : اما عنى أنا ، فانى أشعر بأنى لست على ما يرام ... فى الليلة الماضية عاودنىدائى

القديم ... الشعور بالملل ... نعم ... لقد بدأت اشعر يا مستر رينفورد بأن الصيد لم يعد يثيرنى .

وتناول الجنرال قطعة من الحلوى ، واستطرد :

ــ لم يكن الصيد ممتعا ليلة الأمس ... لقد استبد الارتباك بالرجل الطريدة ، فاتخذ فى هروبه طريقا مستقيما ، فكان من الهين على أن اتعقبه ... الا تبا لهؤلاء البحارة .. ! انهم على غاية من الغباء ... انهم لا يعرفون كيف يسيرون فى الغابات ،وهذا هو ما يضايقنى ... انى اريد رجلا يعرف كيف يضللنى ، وكيف يرهقنى بالبحث عنه ... هل لك فى كأس أخرى من البراندى يا مستر رينفورد .. ؟

وقال رينفورد فى صوت صارم النبرات :

ــ اصغ الى يا جنرال ... انى اريد ان اغادر هذه الجزيرة فى الحال .

ورفع الجنرال حاجبيه الكثيفين ، واوحت قسمات وجهه بأنه مستاء لما سمع .

وقال : ما هذا الذى تقول يا عزيزى رينفورد ..؟ انك لم تكد تصل الى الجزيرة ، فكيف تريد أن تبادر بالرحيل .. ؟

ثم انك لم تمارس لعبة الصيد ... انك ...

بيد أن رينفورد بادر يقاطع الجنرال قائلا :

ــ انى اريد أن اسافر اليوم .

وتأمله الجنرال بنظرة ثابتة يتفحصه ، وبان الجذل فى عينيه . ثم ملأ كأس ضيفه بالبراندى وقال :

ــ الليلة ستقوم بالصيد .. أنت وانا .

وهز رينفورد رأسه سلبا وقال :

ــ كلا يا جنرال ... انى لن اصطاد .

وهز الجنرال كتفيه فى غير مبالاة ، وقضم قطعة من التفاح ، ثم قال :

— ايه .. ! فليكن لك ما تشاء يا صديقى ... انى لا يمكن ان احرمك من حق الاختيار ، ولكن من حقى أن أنبهك الى انك ستجد أن فكرتى عن الصيد أرحم بكثير مما سيفعله بك ايفان .

وأومأ برأسه الى ناحية ايفان الذى كان منتصبا فى ركن القاعة كأنه تمثال من الجرانيت .

وصاح رينفورد : هل تعنى أن ...

ولكن الجنرال ابتدره مقاطعا :

— الم أخبرك من قبل يا مستر رينفورد اننى حين أذكر الصيد فانما أتكلم جدا لا هزلا .. ! اما الصيد ، واما السوط فى يد ايفان يفرى البدن ويهرأ اللحم .

ورفع الجنرال كأسه الى شفتيه وهو يقول :

— الان سأشرب نخب طريدة رائعة تضاهينى عقلا وذكاء ... انى أشرب نخب مستر رينفورد .

وأفرغ فى جوفه ما فى كأسه ، فى حين ظل رينفورد جامدا لا يتحرك ولا يتناول شرابه .

واستطرد الجنرال قائلا فى حماس :

— انك ستجد هذا الطراز من الصيد مثيرا رائعا ... ذكاؤك ضد ذكائى ... وحيلك مقابل حيلى ... وخبرتك بالغابات ازاء خبرتى ... انها أمتع من لعبة الشطرنج ... رجل يتحرك على رقعة الغابة مقابل حركة من رجل آخر ... انه شطرنج آدمى ... وأخيرا : « كش الملك » . يالها من لعبة ممتعة .

وفى صوت أجش قال رينفورد :

— واذا كسبت .. ؟

وأجاب زاروف : اذا لم أعثر عليك حتى منتصف

الليلة الثالثة ، فسأعترف بأنى انهزمت ، وفى هــذه الحالة ترحل على مركبى الشراعى لتنزل فى احــدى الجزر المأهولة .

وقطب رينفورد حاجبيه ، وأدرك الجنرال ما يجــول فى خاطره ، فابتدره بقوله :

ــ لك أن تركن الى كلمتى وان تثق بقــولى .. انى رجل رياضى لا احنث بوعد قطعته على نفسى ... ولكنى فى مقابل هذا افرض عليك شرطا له أهميته عندى .

ــ وما يكون هذا الشرط .. ؟

ــ الا تحدث أحدا بما رأيت فى هذه الجزيرة .

فقال رينفورد فى لهجة عناد واصرار :

ــ لن أعدك بشىء على الاطلاق .

فقال الجنرال فى نبرة استياء :

ــ فى هذه الحالة لا يمكن أن ...

ثم أمسك وبتر عبارته وقال :

ــ ولكن ما الذى يدعونا الى ان نتجــادل الآن فى هذا .. ؟ بعد ثلاثة أيام يمكننا ان نتداول فى هــذا الأمر ، ونحن نحتسى كأسا من الشمبانيا ــ الا اذا ..

ورشف الجنرال جرعة من نبيــذه دون أن يكمل عبارته . ثم ما لبث أن استطرد :

ــ سيعد لك ايفان ملابس الصيد يا مستر رينفورد، مع كمية وفيرة من الطعام ، وخنجر من تلك الخناجر التى يستعملها الصيادون .

ونفث من سيجارته حلقة كثيفة من الدخان ، ثم قال :

ــ دعنى أسدى اليك نصيحة هامة ... ابتعد عن الركن الجنــوبى الشرقى من الجزيرة ، ففيه يقــع

المستنقع الكبير ، ونحن نسميه : « مستنقع الموت » ، وهناك أيضا منطقة « الرمال الناعمة » التى تغوص فيها القدم ، ولا يملك المرء أن ينتزع منها قدمه ، مهما بلغ من القوة والصمود ، ويظل يغوص فى الرمال الناعمة ويغوص ، الى أن تبتلعه وتنطوى فوقه .

ومضى الجنرال يقول محذرا :

ــ حدث مرة أن اتجه أحد البحارة فى هروبه الى هذه المنطقة ، وغاص قدماه فى الرمال الغادرة ، ولحق به لازار أجمل وأقوى كلب عندى ، فابتلعته الرمال ، وحزنت عليه حزنا شديدا .

وقال رينفورد فى نفسه :

ــ هذا الرجل لابد أن يكون معتوها ... لقد حزن من أجل الكلب ، ولم يحفل بذلك الانسان الذى ابتلعته الرمال .

ونهض الجنرال واقفا وهو يقول :

ــ انى استأذنك فى الصعود الى مخدعى ، اذ أحب أن أرتاح قليلا ، أما أنت فلا وقت لديك للراحة ، اذ يجب أن تتقدمنى ببضع ساعات ، فعليك أن تبادر الآن الى الخروج ، أما أنا فسأبدأ فى اقتفاء أثرك عندما يحل الغسق ، وينجاب ضوء النهار .. ان الصيد فى الليل أشد متعة واثارة .. والآن الى اللقاء يا مستر رينفورد ، وأتمنى لك صيدا موفقا .

وانحنى الجنرال زاروف أمام رينفورد يحييه ، وغادر القاعة وضحكاته تجلجل فى أركانها .

وان هى الا دقائق حتى جاء ايفان يحمل معدات الصيد : ملابس كاكى ، وكيس زاخر بالطعام ، وجراب فيه خنجر كبير طويل النصل .

وأدرك رينفورد عندئذ أن مصيره فى كف القدر .

* * *

انقضت ساعتان ورينفورد دائب على شق طريقه فى باطن الدغل المتكاثف الأشجار .

وكان لاينى يردد فى نفسه :

ــ يجب أن أحتفظ بأعصابى هادئة ساكنة .... يجب أن أبقى رابط الجأش .

كان يعلم انه أن اضطرب وتوترت منه الأعصاب ، فان أمله فى النجاة سوف يتبدد وينهار .

حين خرج الى هذه المغامرة التى فرضت عليه لم يكن صافى الذهن ثابت الجنان ، بل كان مضطربا لا يدرى ما ينبغى أن يفعل .

كان كل همه أن يبتعد عن القصر الى أقصى حد ممكن ، حتى تكون بينه وبين الجنرال زاروف مسافة كبيرة تهىء له فرصة الأمن والنجاة . فانطلق مبتعدا ، لا هم له الا أن يسرع بقدر ما تتحمل ساقاه ، وقد استبد به شىء من الذعر .

وأخيرا توقف ، وكف عن المسير ، واشتد صفاء ذهنه ، وأخذ يسائل نفسه عما ينبغى أن يفعل ... ان هذا الفرار لن ينقذه من الموت ... ان الجنرال ــ وهو الصياد القدير ــ سوف يهتدى الى أثره ويلحق به .

ما الذى فعله حتى هذه اللحظة .. ؟ لقد ابتعد كثيرا ... هذا صحيح .. ولكنه سار فى خط مستقيم ، والفرار فى خط مستقيم من الهين أن ينكشف ، فكأنه قضى على نفسه بالاعدام . اذ لن تمضى الا فترة

وجيزة ، ثم يجد نفسه على الشاطىء مواجها البحر ، وبهذا أصبح هيكله ظاهرا يستطيع المرء أنه يـراه من مسافة بعيدة .

تريث رينفورد برهة مفكرا ، يحاول أن يهتدى الى طريقة يضلل بها هذا السفاح .

وقال رينفورد يخاطب نفسه :

ـ سأهيء له أثرا يتبعه ، ويضلله .

وانتحى جانبا بعيدا عن طريقَ « المدق » الذى كان قد اتخذه وهو يسير فى الغابة ، وأخذ يمشى فى حركات دائرية ، ثم يعود راجعا ، وهكذا سار فى الاتجـاه الواحد عدة مرات ، ذهابا وايابا ، متبعا فى هـذا أسلوب الثعالب فى تضليل مطارديهم ، فاذا ما جاء الجنرال يقتفى أثره ، فلن يعرف أن كان رينفورد قد اتجه الى الامام أم رجـع الى الوراء ، وذلك لكثرة خطوط الأثر وتداخلها بعضها فى بعض .

ولا شك أن الجنرال زاروف سيقف أمام هـذه الآثار حائرا مرتبكا ، لا يدرى أيها يقتفى ، وفى هـذه الفترة يكون رينفورد قد ابتعد عنه مسافة أكبر ، وهو ما يهدف اليه .

كانت ليلة مكدودة أرهقت رينفورد ، وبددت كل قواه . فقدمه كليلة لا تقوى على السير ، ووجهه مرعى خصب للخدوش الناشئة عن أغصان الأشجار التى كانت تحتك بوجهه ، وهو يخترق الغابة فى خضـم الظلام . بيد أنه كان يعلم أن من الجنون أن يضرب فى أحشاء الغابة خلال الليل ، حتى ولو توافرت له القدرة على المشى .

كانت حاجته الى الراحة ماسة ملحة ، ومضى يقول فى نفسـه :

— حتى الآن قمت بدور الثعلب ، فراوغت الجنرال والقيت فى طريقه بأثر زائف ، عله يضله ويعميه عن مكانى . ولكن على منذ اللحظة أن أقوم بدور القط الذى قرانا عنه فى قصص الأطفال .

كانت على كثب منه شجرة ضخمة ، لها جذع كبير ، وغصونها وارقة فى متناول يده . ومضى الى الشجرة، واخذ يتسلقها ، حريصا على أن لا يخلف وراءه اثرا ينم على أنه صعد الشجرة . ثم زحف فوق غصن عريض متين ، وانطرح فوقه فى استرخاء ، ليصيب حظا من الراحة .

وافاضت عليه الراحة شعورا بالثقـــة والأمن . فحتى الصياد القدير — كزاروف وأمثاله — لا يمكن أن يهتدى الى مخبئه هـــذا .

بهذا أخذ يحدث نفسه . على أنه ما لبث أن قال :

— لقد طمس اثره ، وافتعل آثارا جديدة مضللة ... انها آثار تحير اقدر الصيادين ، ولا يمكن أن يكتشف زيفها الا الشيطان .

ولكن ما يدريه أن زاروف هو الشيطان نفســـه متخفيا .

وتتـــابعت ساعات الليل بطيئـــة متمهلة ، ورغم السكون الذى يسود الغابة ، لم يغمض له جفن ، اذ إستبد به الأرق ، لفرط انزعاجه مما قد يحدث حين يهتدى الجنرال زاروف الى أثره .

وبدأت ظلمات الليل تتبدد تدريجا ، وانتشرت فى صفحة السماء غلالة رمادية ، وسكت مسامع رينفورد زقزقة العصافير حين تبلجت أضواء الفجر . وأدرك رينفورد بصادق حسه أن الطيور لا تزقزق فجـأة

بهذه الصورة الا اذا كان هناك « شيء » يتحرك فى الغابة ، وهذا الشيء قد يكون حيوانا أو انسانا .

ولكن هنا ــ فى مثل هذا الموقف ، لابد أن يكون القادم انسانا ، وهذا الانسان لابد أن يكون الجنرال زاروف .

كان الجنرال قادما يقتفي أثر طريدته ، رينفورد .

كان آتيا فى بطء ، فى خطوات مختلسة ، خطوات حذرة متوجسة .

ومد رينفورد جسده فوق الغصن العريض ، ومن خلال فرجة صغيرة وسط الأغصان ، أخذ يتطلع الى أسفل ، ليرى ما سوف يفعله الجنرال .

واقترب « الشيء » الذى يقترب رجلا ، وكان هذا الرجل هو الجنرال زاروف .

كانت عينه مركزة على الأرض ، يتأمل الأثر الذى خلفه طريدته .

وتوقف الجنرال على قيد خطوات معدودات من الشجرة ، ثم ركع على ركبتيه ، وأخذ يفحص الأرض على ضوء الفجر الباهت ..

واقتحمت رأس رينفورد فكرة جنونية ... لقد خطر له أن يقفز من الغصن الذى يرقد فيه ، وأن ينقض على الجنرال زاروف ، شأن الفهد ، وأن يغمد خنجره فى صدره ، فيرديه قتيلا .

بيد أنه لمح فى يد الجنرال شيئا يبرق ويلمع .. انه مسدس ، فى رصاصاته يكمن الموت الذريع ، فنفض عنه هذا الخاطر الأحمق ..

واعتدل الجنرال واقفا ، ومضى يهز رأسه عدة مرات ، بطريقة توحى بأن ثمة أمرا ما يحيره .

وأخرج الجنرال من جيبه علبة سجائره الذهبية ، وتناول منها سيجارة أشعلها ، وجذب منها عدة أنفاس ، فتصاعد الى أنف رينفورد أريجها العطرى ، فكتم أنفاسه حتى لا تفاجئه عطسة تكشف مخبأه .

وزايلت عينا الجنرال الأرض ، واستقرتا على جذع الشجرة ، وأخذت العينان تتسلقان الشجرة ، بوصة بعد بوصة .

وتسمر رينفورد فى موضعه فوق الغصن ، وتوترت عضلاته ، وتهيأ للانقضاض على خصمه ـ حين تجىء اللحظة المناسبة .

بيد أن عينى الصياد توقفتا عن تسلق الشجرة ، قبل أن تبلغا الغصن الذى يرقد فوقه رينفورد ـ الطريدة . وارتسمت على شفتى الجنرال ابتسامة خفيفة ، ثم أخذت تتسع وتنتشر حتى اشتملت وجهه كله . ثم استدار وأولى الشجرة ظهره ، ثم ابتعد يسير فى استرخاء وفى خطوات متمهلة . وأخذ صوت الأعشاب وهى تتكسر وتنهصر تحت قدميه ـ يتضاءل ويخف تدريجا ، حتى لم يعد يسمع .

كان أول خاطر طرا بذهن رينفورد هو أن الجنرال صياد قدير حقا ، فها هو ذا قد استطاع أن يقتفى أثر رينفورد حتى انتهى الى الشجرة ، رغم الأثر المضلل الذى ألقاه رينفورد فى طريقه ليخدعه . واذا كان لم يكتشف طريدته راقدا فوق الغصن ، فلعل هذا مرجعه الى الصدفة البحتة ، ولكن هذا لا ينقص من قدر الجنرال وبراعته .

ونحى رينفورد هذا الخاطر عن ذهنه ، وقفز مكانه خاطر آخر بعث فى أوصاله رعدة جارفة ... خاطر ملأ قلبه رعبا وفزعا .

لماذا ابتسم الجنرال وهو واقف تحت الشجرة قبل أن يستدير راجعا .. ؟ نعم .. لماذا ابتسم .. ؟
كانت الحقيقة واضحة جلية ، كتلك الشمس التى تتسرب أشعتها من خلال الأكمة الكثيفة ، ومع ذلك كان رينفورد يحاول أن يخدع نفسه فلا يصدقها .
ولكنه أخيرا آمن بها : كان الجنرال يلعب به ويعبث كما يفعل القط مع الفأر .

لقد اهتدى الجنرال الى مربضه فوق غصن الشجرة ولكنه لم يشأ أن يهاجمه ويطلق عليه النار .. لقد ادخره ليوم آخر من المطاردة ... أدخره لمتعة الصيد فى اليوم التالى . ولذلك ابتسم ، وأرتد راجعا ، دون أن يحاول مواصلة المطاردة .

أنها لعبة القط والفأر ، فرينفورد هو الفأر ، والجنرال هو القط الذى يرى أمامه الفأر ، فيغضى عنه ، ويتركه يبتعد قليلا هاربا ، ثم اذا به فجأة ينقض عليه ، وينشب فيه أظافره الحادة . وهذا ما سوف يفعله به القط الجنرال .

وغشيت قلب رينفورد موجة كاسحة من الخوف .
وقال فى نفسه فى تصميم واصرار .
ــ كلا .. لن أفقد أبدا رباطة جأشى ... يجب أن أظل هادىء الأعصاب ، حتى يصفو ذهنى ، فاهتدى الى مخرج من هذا المأزق .

وهبط من فوق الشجرة ، ومن جديد أخذ يضرب فى أحشاء الغابة .
كانت قسمات وجهه متصلبة توحى بالاصرار ، وكان عقله متحفزا ، يعمل ويفكر بلا هوادة ، باحثا عن طريق الخلاص .

وعلى مسافة مائة متر من مكمنه توقف رينفورد حين شجرة ضخمة ميتة مائلة على جنبيها فوق شجرة اخرى صغيرة لا تزال نامية حية .

ووضع رينفورد كيس الطعام على الأرض ، وتناول خنجر الصيد من جرابه ، وشرع يعمل بهمة لا تعرف الكلل .

وأخيرا انجز المهمة التى شرع فيها ، وسوف يرى ما سوف يحدث حين يأتى القط .

وحمل كيس الطعام ، ومضى مبتعدا ، واختبأ وراء شجرة كبيرة على مسافة ثلاثين مترا ، وقبع فى مخبئه الجديد يترقب وينتظر ، وكان يعلم أنه لن ينتظر طويلا، فان القط لن يلبث أن يحضر لكى يلعب بالفأر .

وأخيرا جاء الجنرال .

جاء يتبع الأثر ، شأن كلب الصيد الذى لا يخطىء .

ان لهذا الصياد مقدرة فذة لا تجارى ، فعينه لا يمكن أن تخطىء شيئا ، فلا يفوته غصن مهصور ، ولا عشب وطئته الأقدام ، ولا ورق شجرة ديست فتكرمشت ، ولا اثر لقدم فوق الأرض ... ان له لعينا ثاقبة عجيبة هذا القوزاقى .

وها هو ذا قد أتى ... ها هو قد وصل الى الشىء الذى اعده رينفورد قبل أن يكتشفه ويتبين الفخ المنصوب ... لقد لمست قدمه الغصن البارز المثنى الذى كان بمثابة الزناد .

ولكن فى اللحظة التى لمس فيها حذاؤه « الزناد » انتبه الجنرال الى الخطر الذى استهدف له ، وقفز الى الوراء مرتدا بخفة القرد .

بين ان وثبته لم تكن بالسرعة المنشودة ، فان الشجرة الكبيرة الميتة مالت فجأة لتستقر فوق الشجرة

الصغيرة الحية ، ولو ان الجنرال لم يثب الى الوراء لوقعت فوقه وسحقته . ولكن هذه القفزة انقذته من سقوط الشجرة فوقه ، اذ لم يمسه منها الا بعض اغصان لطمت كتفه بقوة ، فترنح وكاد ان يقع أرضا، لولا انه تماسك وثبت مكانه .

ووقف الجنرال يدلك كتفه المصاب ، وفى ذعر وخوف سمع رينفورد ضحكة الجنرال الهازئة ، ثم تناهى اليه صوته وهو يقول صائحا :

ـ اذا كنت يا رينفورد فى نطاق صوتى ، فدعني اهنئك على ما فعلت ... انها فى الحق مكيدة بارعة، وقل من الناس من يجيد نصب هذا الفخ ... لا شك انك ذهبت الى جزيرة ملقا ، وتعلمته منهم ، فأهالى هذه الجزيرة هم الوحيدون فى العالم الذين يجيدونه .. انك بحيلك ومكائدك تضاعف متعتى بالصيد .. اننى راجع الآن لأضمد الجرح الذى أصاب كتفى ، ولكنى راجع بالتأكيد ... نعم ... انى راجع فانتظرنى ... سوف اواصل المطاردة حالا فجرحى بسيط .

واستدار الجنرال زاروف راجعا ، وما لبث وقع اقدامه أن تضاءل وخفت حتى لم يعد يسمع .

* * *

خرج رينفورد من مكمنه وراء الشجرة ، وتابع فراره ، وكان الآن فرارا حافلا باليأس ... فرارا لا أمل فيه ولا رجاء .

وأخيرا انحدرت الشمس الى المغيب ، وبدأ الظلام يشتمل الأرض ، ورينفورد مجد فى هروبه بلا هوادة .

وأخذت الأرض تبدو تحت قدميه اكثر ليونة ،وخلت تدريجا من الحصي والحجارة ، ولم يعد يعانى فى سيره المشقة التى الفها .

وعلى حين فجأة ، وهو يخطو الى الأمام ، غاصت قدمه فى أرض رخوة لينة .

تلك هى الرمال المتحركة التى تبتلع كل من يحاول ان يمشى فوقها .

وحاول أن ينتزع قدمه ، ولكن الأرض كانت تشفط قدمه بقوة واصرار ، كأن يد جبار قوى تمسك بكاهله وتجذبه الى أسفل . وارتمى على ظهره فوق الأرض الصلبة ، وبجهد فائق مضن استطاع أن ينتزع قدمه.

وعرف عندئذ مكانه ... انه عند الرمال المتحركة ... عند مستنقع الموت كما يسمونه .

وأثارت الأرض اللينة الرخوة فكرة جديدة فى رأسه.

ابتعد عن حافة المستنقع مترين أو ثلاثة ، ثم شرع يحفر خندقا ، مستعينا بخنجره . ولم يعان رينفورد مشقة فى انشاء هذه الحفرة ، فقد ألف هذا العمل حين كان ملتحقا بالجيش ، فان الخندق هو ملاذ النجاة للجندى عند هجوم الطائرات .

وحين انجزه العمل كانت لديه حفرة عميقة فى طول قامة الانسان .

ومضى الى الشجر القريب يقتطع منه كمية من الأغصان السميكة ، وأخذ يبريها بخنجره ، حتى صار لها سن مدبب حاد ، ثم زرعها فى قاع الحفرة ، جاعلا اسنانها متجهة الى أعلى .

وحمل الى الحفرة كمية كبيرة من الأغصان والأعشاب فرشها فوقها ، فسترت فوهتها ، وأصبحت

خافية على من يصل اليها ، فلا يتبين ان تحت هذه الأعشاب حفرة فيها أسياخ من الأغصان ذات الأسنان المدببة .

وحين انتهى رينفورد من اعداد هذا الفخ الجديد قبع وراء جذع شجرة ، يترقب ما سوف يقع .

كان يعلم ان مطارده موشكا أن يحضر ، فقد سمع وقع خطاه على الأرض اللينة ، كما حملت اليه هبات النسيم العطر الذى ينبعث من السجائر التى يدخنها . وكان وقع الأقدام يوحى بأن الجنرال يسير بسرعة اكبر من عادته المألوفة .

وكان رينفورد فى موضعه المنزوى وراء الشجرة لا يرى الجنرال ، ولا يرى الحفرة التى اعدها ، ولكنه كان قابعا فى مكمنه ، يترقب وينتظر ، والدقيقة التى تمرُ به ، تتراءى له عاما طويلا ممتدا .

وطغت عليه نزوة جارفة بأن يطلق صيحة فرح ، حين سمع خشخشة الأعشاب والأغصان التى تغطى فوهة الحفرة وهي تتكسر وتتهاوى ، ثم تتلوها صرخة ألم حادة دلته على أن اسنان الأسياخ المدببة قد اصابت هدفها .

وقفز رينفورد من موضعه وراء الشجرة ، ثم ارتد راجعا فى ذعر وخوف .

ذلك أنه رأى على قيد متر واحد من الحفرة شبح رجل منتصب ، وفى يده بطارية يسلط ضوءها الى قاع الحفرة .

ولم يكن هذا الرجل الا الجنرال زاروف .

اذن من الذى وقع فى الحفرة .. ؟ من الذىانفرزت فى جسده الأسياخ .. ؟

وجاءه صوت الجنرال عاليا يقول :

ــ لقد أحسنت صنعا يا رينفورد ... ان هذه الحفرة التى تصاد بها النمور فى الهند قد اقتنصت كلب صيد من خير كلابى ... انى اسجل بهذا العمل نقطة اخرى لصالحك يا مستر رينفورد ، ولكن ما عساك تصنع حين اطاردك ومعى كلابى كلها .. ؟

واستطرد الجنرال : انى ذاهب الآن الى البيت لأصيب قسطا من الراحة ، وانى لممتن لك على هذه الأمسية الممتعة الحافلة بالاثارة ... والى اللقاء .

* * *

عند بزوغ الفجر كان رينفورد راقدا بالقرب من مستنقع الموت ... ارض الرمال المتحركة ، وقد استغرق فى النوم لفرط ما عانى من اضطراب وتوتر فى الأعصاب .

وعلى حين بغتة انتبه رينفورد من نومه على صوت تعلم منه أن الخوف حين يفاجىء المرء قد يسدد اليه صدمة تشل قدرته على التفكير .

كان الصوت آتيا من بعيد ... كان صوتا خافتا ليست له معالم واضحة ، ولكن رينفورد استطاع أن يعرفه .. انها همهمة صادرة من مجموعة من الكلاب ... انها كلاب تقترب وهى تزوم .

لقد صدق حين قال له الجنرال زاروف ليلة الامس انه استطاع أن يتخلص من كلب واحد ، ولكن ما عساه يفعل ان جاءه الجنرال وفى صحبته قطيع من الكلاب ..!

ولم يكن امام رينفورد الا امر من امرين :

اما أن يلزم مكانه لا يبرحه ، ينتظر ويترقب ما سوف يجرى ، وهذا معناه أنه قضى على نفسه بالموت ... معناه أنه قرر أن ينتحر على يد هذه الكلاب المتوحشة، حين تنقض عليه ، فتنهش لحمه ، وتمزقه اربا ، ولا تدعه الا أشلاء متناثرة .

أما الحل الثانى،فهو أن ينطلق هاربا بأقصى سرعة. وهذا معناه أنه سيؤجل المصير المحتوم ، اذ الموت مقضى به فى الحالين ، سواء بقى أو هرب .

ولبث برهة جامدا مكانه ، يسائل نفسه عما ينبغى أن يفعل ، وهدير الكلاب يزداد فى سمعه جلاء .

وفجأة انبثقت فى ذهنه فكرة أخرى ... فكرة قد تسفر عن نجاته .. أن النجاة ليست بالأمر المؤكد ، ولكن الفرصة سانحة ، فلم لا يجرب ..؟ لم يتقاعس ؟

وانطلق يجرى متباعدا عن مستنقع الموت .

بيد ان هدير الكلاب كان يلاحقه ... كانت الهمهمة تقترب ، وتقترب ... كانت تشتد أكثر ، وأكثر ـ وهو ماض فى ركضه ، لا يلوى على شىء .

وأشرف اخيرا على البحر ، وتسلق شجرة فى جرف ينحدر الى الماء فى خط مستقيم رأسى .

ومن مكمنه فوق الشجرة ألقى ببصره ناحية الغابة . ورأى الشجيرات تهتز وتتمايل ، ثم استطاع أن يرى الجنرال زاروف بقوامه النحيف يسير موفضا خطاه .

وأستطاع رينفورد أن يميز شبح رجل يسعير أمام الجنرال ...انه رجل مديد القامة ، عريض المنكبين، ضخم الجسم ، ولم يداخله شك فى أن هذا العملاق هو

الجندى ايفان ..الحارس الاصم الأخرس . وكان يبدو من مشيته وحركاته أن ثمة شيئا يجره ويسحبه . وكان هذا الشيء هو قطيع كلاب الصيد ، اذ كان ايفان ممسكا بمقودها .

وكانت النتيجة جلية لا شك فيها : ان هى الا دقائق معدودات ، وتصل اليه الكلاب ، وتتسلق الشجرة ، ثم تنقض عليه ، فلا تدعه حتى يصبح جثة هامدة .

وفكر فى حيلة قد تنقذه ، حيلة تعلمها من أبناء أوغندا حين زارها فى رحلة للصيد والقنص .

هبط من الشجرة ، وأمسك بغصن لين ، وربط فيه خنجره ، وجعل سن النصل موجها الى الممر الضيق الذى لابد ان يسلكه القادمون . ثم اتخذ من فرع شجرة كرم حبلا ربط به الغصن المشدود اليه الخنجر ، وثنى الغصن الى الوراء ، وثبت فرع الكرم فى الأرض ، بأن وضع على طرفه حجرا . فأذا جاءت الكلاب ، وسارت فى طريق المدق الذى لا يوجد طريق غيره ، فأنها ستطأ الحجر الموضوع فوق فرع الكرم ، ويتزحزح الحجر من مكانه ، وينفرد الغصن بقوة دافعة شديدة ، ويستقر الخنجر فى صدر اول قادم على طريق المدق ، وهذا اما أن يكون الجندى ايفان ، أو الجنرال زاروف .

وصعد رينفورد الى احدى الاشجار ، وعينه على طريق المدق .

وعلى حين بغتة امسكت الكلاب عن الهدير ، وكفت عن الهمهمة ... لابد اذن انها وصلت الى موضع الخنجر ، وداست على حبل الكرم المشدود اليه ، فما الذى حدث يا ترى ..؟

واشرأب رينفورد بقامته ، وجعل يحدق فى طريق المدق ، وادرك عندئذ ان الامل الذى تعلق به خاب

وانهار ، فقد رأى الجنرال زاروف منتصبا على قدميه، أما الجندى أيفان ، فلم يكن له وجود .

اذن فقد غاص الخنجر بعد انطلاقه فى صدر ايفان ، وقد كان يتمنى أن ينغرز فى صدر الجنرال .

وأسرع رينفورد يهبط الى الأرض ، وما كادت قدماه تستقران عليها حتى عادت الكلاب تزوم من جديد ، وانطلقت فى أعقابه ، بعد أن تناهت رائحته الى خياشيمها .

ظل رينفورد منطلقا فى ركضه حتى بلغ نهاية الجرف المطل على البحر ، وتسمر مكانه مترددا .

واقتربت منه الكلاب ، وهى ترسل نباحها الوحشى. لقد دنت من الطريدة ، وان هى الا بضعة امتار ، ثم تنقض عليها فتمزقها .

ودنا رينفورد من حافة البحر ، ووقف محجما .

واقتربت الكلاب ... وثبة بعد وثبة ... وهى تزمجر فى وحشية .

وقبل أن تثب الكلاب على رينفورد ، كان رينفورد قد وثب الى البحر .

وحين وصل الجنرال زاروف وكلابه الى حافة الجرف وقف يتأمل مياه البحر بعين فاحصة ، هز كتفيه فى ابتهاج ، واستوى جالسا على صخرة ناتئة ، واشعل احدى سجائره المعطرة ، ومضى يدخنها فى استمتاع واضح .

واذ فرغ من تدخينها ، قذف بالعقب الى البحر ، وهو يردد فى صوت مرح :

ــ أنت ايضا الى الاعماق ..!

ثم نهض واقفا ، وارتد راجعا الى بيته ، وهو يصفر لحنا موسيقيا مرحا .

* * *

فى ذلك المساء تناول الجنرال زاروف عشاء دسما شهيا ، وشرب عدة أقداح من الشمبانيا ، وكان يبدو سعيدا هانئا،وان كان هناك أمران يعكران عليه صفوه .

أولهما أنه كان يعرف انه سيجد مشقة فى العثور على بديل يحل محل ايفان .

وثانيهما أن طريدته رينفورد أفلتت منه ... انه حقيقة غاص فى أعماق البحر ، وطوته اللجة ، ولكنه لم يكن يريد له أن يموت غريقا ، وانما كان يتمنى أن يقضى عليه برصاص مسدسه ، حتى يستمتع بلذة الصيد والقنص ...ولكن ما العمل ..؟ لقد آثر رينفورد أن يقضى منتحرا على أن يقع فى أيدى الكلاب .

ومضى الجنرال الى قاعة المكتبة ، وتناول كتاب شعر ، وانكب عليه يطالعه ، حتى يذهب عن نفسه ما كان يراوده من ضيق .

واذ ارسلت ساعة الحائط عشر دقات صعد الجنرال الى مخدعه .

خلع ثيابه ، وآوى الى فراشه ، ثم أطفأ النور . وعندئذ سمع حفيفا عند النافذة ، وعلى ضوء القمر الذى تتسلل أشعته الواهنة الى المخدع راى رجلا يبرز من وراء الستار المسدل على النافذة .

وقال الجنرال وهو ما زال راقدا فى فراشه :

— من أنت ..؟ من هناك ..؟

وحين سقط شعاع القمر على وجه الرجل عرفه على الفور .

وهتف الجنرال : رينفورد .. ؟ اذن فقد نجوت من الغرق ..؟ ولكن بحق السماء كيف جئت هنا ..؟

— جئت سابحا ...أن السباحة اسرع بكثير من القدوم عن طريق الغابة .

وابتسم الجنرال وقال :

— دعنى أهنئك يا رينفورد ... لقد كسبت الجولة، وفزت فى لعبة المطاردة

وتكلم رينفورد ، ولكن دون أن يبتسم :

قال فى خشونة وجفاء :

— ومن قال لك أن لعبة المطاردة قد انتهت ..؟ منتصف الليل هو موعد انتهاء المباراة ، وأنا حتى اللحظة ما زلت ذلك الحيوان المطارد ، وانت ما زلت الصياد.. فهيا استعد يا جنرال ، وكن على حذر .

وقال الجنرال : فليكن .. اذن المطاردة قائمة . ومن يكسب سينام الليلة فى هذا الفراش الوثير .

وهم الجنرال بأن يهب جالسا ليتناول مسدسه الموضوع على منضدة بجانب السرير ، ولكن رينفورد كان أسرع منه

وفى تلك الليلة نام رينفورد فى الفراش الوثير .

تمت

التوزيع فى ج.م.ع : مؤسسة الاهرام
التوزيع فى جميع الدول العربية
الشركة الشرقية للنشر والتوزيع ببيروت ـ لبنان

رقم الايداع ١٩٧٧/٣٥٧٤
ISBN الترقيم الدولى ٤ـ٠٤ـ٧٠٤٩

مطابع الاهرام التجارية

ـ سيدتى ... يجب أن تتجردى من ثيابك حتى أرسمك .

ـ ولكنى أريد أن أرسم وأنا مرتدية ملابسى

ـ اننى لا أرسم الا النساء العاريات .

وخلعت السيدة ثيابها : قطعة بعد قطعه ، وفى رأسها خضم من الخواطر ، تصطدم وتتدافع

وأخيرا كانت الفضيحة الكبرى .

الثمن ١٥ قرشا
ق ٠ ج ٠ م ٠ ع